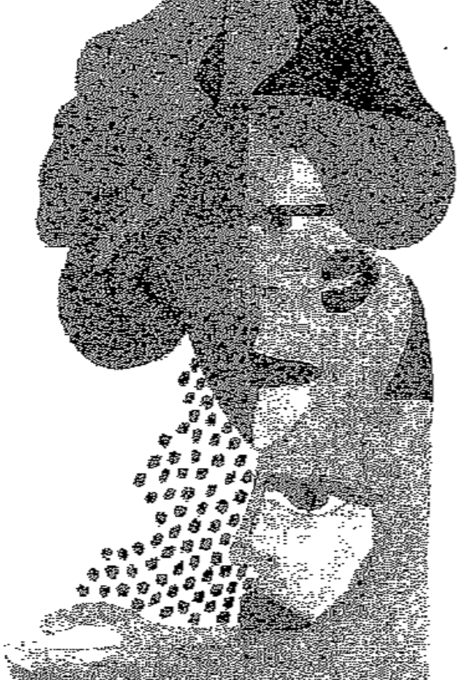
المواجهة

رفاعة رافع الطهطاوي

تخليص الابريز في تلخيص باريز

(٢)



التنوير

اهداءات ٢٠٠٠

ا.د. فتح الله خليف
أستاذ الفلسفة بآداب الإسكندرية

المواجهة

رفاعة رافع الطهطاوي

تخليص الإبريز في تلخيص باريز

(٢)

التنوير

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

الفصل الثانى

(فى الكلام على أهل باريس)

اعلم أن الباريزيين يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل ، ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى الغويصات ، وليسوا مثل النصارى القبطة ، فى أنهم يميلون بالطبيعة الى الجهل والغفلة ، وليسوا أسراء التقليد أصلا ، بل يحبون دائما معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه ، حتى ان عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة ، ويدخلون مع غيرهم فى الأمور العميقة ، كل انسان على قدر حاله ، فليست العوام بهذه البلاد من قبيل الأنعام كعوام أكثر البلاد المتبربرة ·

وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة فى الكتب حتى الصنائع الدنيئة ، فيحتاج الصنائعى بالضرورة الى معرفة القراءة والكتابة لاتقان صنعته ، وكل صاحب فن من الفنون يحب أن يبتدع فى فنه شيئا لم يسبق به ، أو يكمل ما ابتدعه غيره · ومما يعينهم على ذلك زيادة عن الكسب حب الرياء والسمعة ودوام الذكر ، فهم يقتدون بقول الشاعر :

لعمرى رأيت المرء بعد زواله   حديثا بما قد كان يأتى ويصنع
فحيث الفتى لابد يذكر بعده   فذكراه بالحسنى أجل وأرفع

وقول ابن دريد :

وانمـــا المرء حديث بعــده فكن حديثـــا حســـنا لمن وعي

وقيل لاسكندر : لو استكثرت من النساء كثر ولدك ، وطاب بهم ذكرك ، فقال : دوام الذكر في حسن السيرة والسنن ، ولا يحسن لمن غلب الرجال أن تغلبه النساء •

ومن طباع الفرنســـاوية التطلع والتولع بســـائر الأشياء الجديدة ، وحب التغيير والتبديل في سائر الأمور ، وخصوصا في أمر الملبس ، فانه لا قرار له أبدا عندهم ، ولم تقف لهم الى الآن عادة في التزيي ، وليس معنى هذا أنهم يغيرون ملبسهم بالكلية ، بل معناه أنهم يتنوعون فيه ، مثلا : لا يغيرون لبس (البرنيطة) ولا ينتقلون منها الى العمامة ، وانما هم تارة يلبسون (البرنيطة) على شكل ، ثم بعد زمن ينتقلون منه الى شكل آخر ، سواء في صورتها أو لونها ، وهكذا •

ومن طباعهم المهارة والخفة ، فان صاحب المقام قد تجده يجرى في السكة كالصغير ، ومن طباعهم أيضا الطيش والتلون ، فينتقل الانسان منهم عن الفرح الى الحزن وبالعكس ، ومن الجد الى الهزل وبالعكس ، حتى ان الانسان قد يرتكب في يوم واحد جملة أمور متضادة ، وهذا كله في الأمور الغير المهمة ، وأما في الأمور المهمة فآراؤهم في السياسات لا تتغير ، كل واحد يدوم على مذهبه ورأيه ، ويؤيده مدة عمره ، ومع كثرة ميلهم الى أوطانهم يحبون الأسفار ، فقد يمكثون السنين العديدة والمـدة المديدة ، طوافين بين المشرق والمغرب ، حتى انهم قد يلقون أنفسهم في المهالك ، لمصلحة تعود على أوطانهم ، فكأنهم مصداق قول الحاجرى :

كل المنـــازل والبـــلاد عزيزة عنـــدى ولا كمواطنى وبلادى

وقال آخر :

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى — ما الحب الا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى — وحنينــه أبـدا لأول منزل

ومن خصالهم محبة الغرباء والميل الى معاشرتهم ، خصوصا اذا كان الغريب متجملا بالثياب النفيسة ، وانما يحملهم على ذلك الرغبــة والتشوف الى السؤال عن أحوال البلاد ، وعوائد أهلها ، ليظفروا بمقصــدهم فى الحضر والسفر ، وقد جــرت عادة النفوس الى الطمع من الدنيا بما لا تظفر به ، كما قال الشاعر :

ان النفوس على اختلاف طباعها — طمعت من الدنيا بما لم تظفر

وليس عندهم المواساة الا بأقوالهم وأفعالهم ، لا بأموالهم ، الا أنهم لا يمنعون عن أصحابهم ما يطلبون استعارته لا هبته الا اذا وثقوا بالمكافأة ، وهم فى الحقيقة أقرب للبخل من الكرم ، وقد ذكرنا علة ذلك فى ترجمتنا « مختصر السير والعوايد فى ذكر الضيافــة » وفى الواقع ، حقيقة السبب فى ذلك هو أن الكــرم فى العرب .

ومن أصافهم توفيتهم غالبا بالحقوق الواجبة عليهم ، وعدم اهمالهم أشغالهم أبدا ، فانهم لا يكلون من الأشغال سواء الغنى والفقير ، فكأن لسان حالهم يقول : ان الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما .

ومن المركوز فى طبعهم حب الرياء والسمعة ، لا الكبر والحقد ، فهم كما يقولون فى مدح أنفسهم : أخلص قلــوبا من الغنم عند ذبحها ، وان كانوا عند الغضب أشد افتراسا من النمور ، فان الانسان منهم اذا غضب قد يؤثر الموت على الحياة ، فقل أن يفوت زمن يسير من غير أن يقتل انسان نفسه خصوصا من داء الفقر أو العشق .

ومن طباعهم الغالبة : وفاء الوعد ، وعدم الغدر ، وقلة الخيانة . ومن كلام بعض الحكماء : المواعيد شباك الكرام ، يصطادون بها محامد الأحرار . وقال آخر : كفر النعمة من لؤم الطبيعة ورداءة الديانة . وقال آخر : الشكر وكاء النعمة ، والوفاء به صلاح تعقبي . وقيل : وعد الكريم ، ألزم من دين الغريم . وقال بعضهم الخيانات تؤذي الأمانات .

ومن طباعهم الغالبة : الصدق ، ويعتنون كثيرا بالمروءة الانسانية ، قال بعضهم في مدحها : المروءة اسم جامع للمحاسن كلها .

ومن الصفات التي يقبح وصف الانسان بها عندهم : كفر النعم ، مثل غيرهم . فيرون أن شكر المنعم واجب ، وأظن أن جميع الأمم ترى ذلك — وان كانت قد تفقد هذه الصفة عند أفراد ، فهو خروج عن الطبع ، فهي كشفقة الوالد وبر الولد ، فانهما قد يتخلفان في بعض الأفراد ، مع أنهما صفتان جبليتان ، عند سائر الأمم والملل . ومما قيل في ذلك ، وهو أحسن ما قيل مع ما فيه من الاستطراد :

هب البعث لم يأتنا نذره   وأن لظى النار لم تضرم

أليس بكاف لذي فكرة   حياء المسيء من المنعم

ويقال ان أبا بكر الخوارزمي الشاعر المشهور قصد الصاحب بن عباد فأحسن نزله وأكرمه وأقام في نعمته مدة ، ثم حين ارتحاله كتب بيتين وجعلهما في مكان حيث يجلس الصاحب وهما :

لا تحمدن ابن عباد وان هطلت   كفاه بالجود حتى أخجل الديما

فانها خطرات من وساوسه   يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

فلما وقف عليهما الصاحب قال وقد بلغه موت الخوارزمى :

أقول لركب من خراسان أقبلوا   أمات خوارزميكم ؟ قيل لى : نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره :   ألا لعن الرحمن من يكفر النعم !

وهذا بخلاف أبى طالب عبد السلام بن الحسين المأمونى من أولاد المأمون ، وهو شاعر محسن أقبل على الصاحب بن عباد ، فرماه ندماء الصاحب فسقطت منزلته عنده ، فقال قصيدة طلب فيها من الصاحب الاذن بالرحيل ، ومن وداعها قوله :

أسير عنك ولى فى كل جارحة   فم بشكرك يحوى منطقا أربا
انى لأهوى مقامى فى ذراك كما   تهوى يمينك فى العافين أن تهبا
لكن لسانى يهوى السير عنك لأن   يطبق الأرض مدحا فيك منتخبا
أظننى فت أهلى والأنام همو   اذا ترحلت عن مغناك مغتربا

ومن خصالهم أيضـــا : صرف الأموال فى حظوظ النفس ، والشهوات الشيطانيــة ، واللهو واللعب ، فانهم مسرفــون غاية السرف .

ثم ان الرجال عندهم عبيد النساء ، وتحت أمرهن سواء كن جميلات (١) أم لا . قال بعضهم : ان النساء عند الهمل معدات للذبح ، وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت ، وعند الافرنج كالصغار المدلعين ، قال الشاعر :

اعص النساء فتلك الطاعة الحسنه   فلن يسود فتى يعطى النساء سنه
يعقنه عن كثير من فضـــائله   ولو سعى طالبا للعلم ألف سنه

ولا يظن الافرنج بنسائهـــم ظنــــا ســـيئا أصلا ، مع أن هفواتهن كثيرة معهم ، فان الانسان ، ولو من أعيانهـــم ، قد يثبت

---

(١) الأصل : « جمالات » .

له فجور زوجته ، فيهجرها بالكلية ، وينفصل عنها مدة العمر . والتفريق بينهما بهذه المثابة يكون عقب اقامة دعوى شرعية ومرافعة يثبت فيها الزوج دعواه بحجج قوية على رءوس الأشهاد ، تتلوث فيها الذرية بالفضيحة وان كانت بدون لعان ، ولا تعرض للأولاد . وهذا يقع كثيرا فى العائلات الكبيرة والصغيرة ، ويشهد مجلس المرافعة الخاص والعام . فلا يعتبر الآخرون بذلك ، مع أنه ينبغى الاحتراس منهن ، كما قال الشاعر :

لا يكن ظنك الا سيئا ... بالنسا ان كنت من أهل الفطن
مارمى الانسان فى مهلكة ... قط الا ظنه الظن الحسن

ومن كلام بعض العرب العرباء خطابا لزوجته :

ان امرأ غره منكن واحدة ... بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور

ومن الأمور المستحسنة فى طباعهم ، الشبيهة حقيقة بطباع العرب : عدم ميلهم الى الأحداث ، والتشبب فيهم أصلا . فهذا أمر منسى الذكر عندهم ، تأباه طبيعتهم وأخلاقهم ، فمن محاسن لسانهم وأشعارهم أنها تأبى تغزل الجنس فى جنسه ، فلا يحسن فى اللغة الفرنساوية قول الرجل : عشقت غلاما فان هذا يكون من الكلام المنبوذ المشكل ، فلذلك اذا ترجم أحدهم كتابا من كتبنا يقلب الكلام الى وجه آخر ، فيقول فى ترجمة تلك الجملة عشقت غلامه ، أو ذاتا ، ليتخلص من ذلك فانهم يرون هذا من فساد الأخلاق . والحق معهم . وذلك أن أحد الجنسين له فى غير جنسه خاصة من الخواص يميل بها اليه كخاصة المغناطيس فى جذب الحديد مثلا ، وكخاصة الكهربا فى جذب الأشياء ، ونحو ذلك ، فاذا اتحد الجنس انعدمت الخاصة ، وخرج عن الحالة الطبيعية . وهذا الأمر عندهم من أشد الفواحش ، حتى انه قلما ذكروه صريحا فى كتبهم بل يكنون عنه بما أمكن ، ولا يسمع التحدث به أصلا ، ويعجبنى قول الشيخ عباس اليمنى :

كلفت بســـعدى والربــاب وزينب
ولم أعتبر آس العــذار ولامــه (١)

ولا اخترت تشبيبا بأمــرد مذهبــا
وان ذم طبعى من يراه ولامـــه (٢)

وما حسنه عندى سـوى فى عجاجة
وحمل قناه كالشــهاب ولامــه (٣)

ويغشى سعير الحرب ليس يصـــه
حنانيك عن ضرب الرقاب ولامه (٤)

ومن خصالهم الرديئة : قلة عفاف كثير من نسائهم كما تقدم ، وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الاسلام من الغيرة بمثل المصاحبة والملاعبة والمسايرة . ومما قاله بعض أهل المجون الفرنســاوية : لا تغتر باباء امرأة اذا سألتها قضاء الوطر ، ولا تستدل بذلك على عفافها ، ولكن على كثرة تجربتها . انتهى . كيف والزنا عندهم من العيوب والرذائل ، لا من الذنوب الأوائل ، خصوصا فى حق غير المتزوج ، فكأن نســاءهن مصداق قول بعض الحكمــاء : لا تغتر بامرأة (١) ، ولا تثق بمال وان كثر ، وقال آخر : النساء حبائل الشيطان ، وقال الشاعر :

تمتع بها ما ساعفتك ، ولا تكن جزوعا اذا بانت فسوف تبين
فان هى أعطتك الليان فانهــا لآخر من طلابهــا ســتلين
وان حلفت لاينقض النأى عهدها فليس لمخضوب البنسان يمين

---

(١) الآس : الريحان . والعذار : الخد ، ولامه : استدارته .
(٢) لام هنا بمعنى : عذل .
(٣) اللام مسهل اللأم : جمع لأمة ، وهى الدرع .
(٤) صه : اسم فعل أمر بمعنى أترك .

وبالجملة فهذه المدينة ، كباقى مدن فرانسا وبلاد الافرنج العظيمة ، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والاختلالات ، وان كانت مدينة « باريس » من أحكم سائر بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية . وأثينة الفرنساوية وقد قابلتها فيما تقدم نوع مقابلة بأثينة أى مدينة حكماء اليونان ، ثم رأيت بعض أهل الأدب من الفرنساوية قالما معناه : ان الباريزيين أشبه الناس بأهل أثينة ، أو هم أثينيو هذا الزمان ، فان عقولهم رومانية ، وطباعهم يونانية . انتهى .

وقد أسلفنا أن الفرنساوية من الفرق التى تعتبر التحسين والتقبيح العقليين وأقـــول هنا انهم ينكرون خوارق العـــادات ، ويعتقدون أنه لا يمكن تخلف الأمور الطبيعية أصلا ، وأن الأديان انما جاءت لتدل الانسان على فعل الخير ، واجتناب ضده ، وأن عمارة البلاد وتطرق الناس وتقدمهم فى الآداب والظرافة تسد مسد الأديان ، وأن الممالك العامرة تصنع فيها الأمور السياسية كالأمور الشرعية .

ومن عقائدهم القبيحة قولهم : ان عقول حكمائهم وطبائعييهم أعظم من عقول الأنبياء وأذكى منها .

ولهم كثير من العقائد الشنيعة كانكار بعضهم القضاء والقدر ، مع أن من الحكم العاقل من يصدق بالقضـــاء ، ويأخذ بالحزم فى سائر الأشياء وان كان لا ينبغى للانسان أن يحيل الأشياء على المقادير أو يحتج بها قبل الوقوع ، فان من الأمثال التى سارت بها الركبان : من دلائل العجز كثرة الاحالة على المقادير ، ومن كلام بعضـــهم اذا وقعت المجادلة فالســـكوت أفضـــــل من الكلام ، واذا وقعت المحاربة فالتدبير أفضل من التقدير .

ومنهم جماعة يعتقدون أن الله تعالى خلق الخلق ، ونظمهم نظاما عجيبا ، فرغ منه ثم لايزال يلاحظهم بصفة له تعالى ، تسمى صفة

العناية والحفظ ، تتعلق بالممكنات اجمالا ، بمعنى أنها تمنعها عن خلل انتظام الملك . وسنذكر بعض عقائدهم فى غير هذا المحل .

ثم ان لون أهل « باريس » البياض المشرب بالحمرة ، وقل وجود السمرة فى أهلها المتأصلين بها،وانما ندر ذلك لأنهم لايزوجون عادة الزنجيـة للأبيض أو بالعكس ، محافظة على عدم الاختلاط فى اللون . حتى لا يكون عندهم ابن أمة . قال الشاعر :

فى الهنـد طـير ناطـق ســبحان مـولى الهمـه
يقـول فى تغريـده : ابن الأمـه ماالأمـه

بل لا يعدون أنه قد يكون للزنج جمال أصلا ، بل غيره عندهم من صفات القبح فليس لهم فى المحبة مذهبان ، ولا يحسن عندهم قول الشاعر فى غلام :

لك وجه كأن بنانى خطتـه بلفـظ تمـله آمـالى
فيه معنى من البـدور ، ولكن نفضت صبغها عليه الليالى
لم يشنك السواد بل زدت حسنا انما يلبس الســواد الموالى

بل لسان حالهم دائما ينشد قول الآخر :

ألا ان عندى عاشق السمر غالط وان الملاح البيض أبهى وأبهج
وانى لأهوى كل بيضاء غـادة يضىء لها وجـه وثغـر مفلج
وحسبى أنى أتبع الحق فى الهوى ولا شك أن الحق أبيض أبلج

على أنه لا يحسن عند الفرنساوية استخدام جارية سوداء فى الطبخ ونحوه ، لما ركز فى أذهانهـم أن الســود عارون عن النظافة اللازمة .

ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة ، حسان المسايرة والملاطفة ، يتبرجن دائما بالزينة ، ويختلطن مع الرجال فى المنتزهات،

وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال فى تلك المحال ، سواء الأحرار وغيرهن ، خصوصا يوم الأحد الذى هو عيد النصارى ، ويوم بطالتهم ، وليلة الاثنين فى (البـالات) والمراقص الآتى ذكرهـا ، ويحسن قول بعضهم (شعر) :

والراقصات وقد مالت ذوائبها   على خصور كأوساط الزنابير
يخفى الردى سقمهاعنافيفضحها   عقد البنود(١)وشدات الزنابير

ومما قيل : ان « باريس » جنة النساء ، وأعراف الرجال ، وجحيم الخيـل ۰ وذلك أن النساء بها منعمـات ، سواء بمـالهن أو بجمالهن ۰

وأما الرجال فانهم بين هؤلاء وهؤلاء عبيد النساء،فان الانسان يحرم نفسه وينزه عشيقته ، وأما الخيل فانها تجر العربات ليـلا ونهارا على أحجار أرض « باريس » خصوصا اذا كانت المستأجرة للعربة امرأة جميلة ، فان (العربجى) يجهـد خيله ليوصلهـا الى مقصدها عاجلا ، فالخيل دائما معذبة بهذه المدينة ۰

وحيث ان باريس من بـلاد الفـرنسيس ، فمعلوم أن لسان أهلها هو اللسان الفرنساوى ۰ ولنذكر هنا نبذة من ذلك فنقول : اعلم أن اللسان الفرنساوى من الافرنجية المستحدثة ، وهو لسان الغلوية يعنى قدماء الفرنسيس، ثم كمل من اللغة اللاطينية ، وأضيف اليه شىء من اللغة اليونانيـة النيمساوية ويسير من لغة الصقالية وغيرها ، ثم حين برع الفرنساوية فى العلوم نقلوا كلمات العلوم من لغات أهلها ۰ وأكثر الكلمات الاصطلاحية يونانيـة ، حتى كأن لسانهم من أشيع الألسن وأوسعها ، بالنسبة لكثرة الكلمات غير المترادفة ، لا بتـلاعب العبـارات والتصرف فيها ، ولا بالمحسنات

(١) البند : العلم الكبير ، يريد به الثوب ۰

البديعية اللفظية ، فانه خال عنها ، وكذا غالب المحسنات البديعية المعنوية ، وربما عد ما يكون من المحسنات فى العربية ركاكة عند الفرنسيس ، مثلا لا تكون التورية من المحسنات الجيدة الاستعمال الا نادرا فان كانت فهى من هزليات أدبائهم وكذلك مثل الجناس التام والناقص فانه لا معنى له عندهم وتذهب ظرافة ما يترجم لهم من العربية ، مما يكون مزينا بذلك ، مثل قول صاحب البديعية :

من العقيق ومن تذكار ذى سلم   براعة العين فى استهلالها بدم

ومن أهيل النقا تم النقا وبدا   تناقص الجسم من ضر ومن ضرم

ولا يمكن أن ينقل الى لغاتهم ما قلته فى نظم مصطلح الحديث :

صحيح جسمى من فرط الجوى عضلا
ومرسل الدمع من عينى قد اتصلا

تواترت قصتى فى الناس قاطبة
حتى لضعفى رثى لى كل من عذلا

تعنعن السحب عن عينى روايتها
كما يسلسل عنها القطر اذ هملا

رفعت أمرى الى قاضى الهوى فأبى
وقال : مالى على هذا المليح ولا

ياقلب صبرا على مافيك من علل
ولا تشذ ، وتجزع ، واترك المللا

ودع بقية ما أبقاه من رمق
لديه ، لاتعتبر تعنيف من عذلا

فذاك لاح وبالتدريس مشتهر
وقوله منكر ، زور ، وما قبلا

الى آخر قولى فيها :

وقفت حبى عليـــه لايجـــاوزه

وهكذا شأن صب فى الهوى كملا

وسيأتى تتميم الكلام على ذلك . وبلجملة فلكــل لســـان اصطلاح وأصطلاح اللغة الفرنساوية تقليل التصريف ماأمكن، وتصريف الفعل مع فعل آخر . مثلا اذا أراد الانسان آن يخبر بأنه آكل فانه يقول : أملك مأكولا ، يعنى لا يمكن تصريف (أكل) فى بعض أحواله الا مع فعل الملك أو التلبس ، فكأنــه يقول : تلبست بالأكل واذا أراد أن يقول : خرجت ، يقول : أنا أكون مخرجا ، يعنى : خرجت وهكذا يسمى فعل الملك ، وفعل الكينونة : فعلين مساعدين ، يعنى أنهما يعينان على تصريف الأفعال ، ويتجردان عن معناهما الأصلى ، واذا أرادوا تعدية الفعل قالوا : فعلت له الأكل ، يعنى جعلته يأكل، أو آكلته ، وفعلت له الخروج ، يعنى اخرجته وهكذا . فلا يمكنهم تصريف الأفعال كما يمكن فى اللغة العربية ، فلذلك كانت لغتهم ضيقة من هذه الحيثية ، ثم ان قواعــد اللسان الفرنساوى وفــن تركيب كلماته وكتابتها وقراءتها يسمى : (غرماتيقى) « واغرمير » (بتشديد الميم) عند الفرنسيس ، ومعناه فن تركيب الكلام من لغة من اللغات ، فكأنه يقول : فن النحو فيدخل فيه سائر ما يتعلق باللغة ، كما نقول نحن : علوم العربية : ونريد بها الاثنى عشر علما المجموعة فى قول شيخنا العطار :

نحو وصرف عروض بعده لغــة

ثم اشتقاق قريض الشعر انشاء

كذا المعانى بيان الخط قافيـــة

تاريـخ هذا لعلم العرب احصاء

وبعضهم زاد البديع ، وآخر استحسن زيادة التجويد وبالجملة

فباب الزيادة والنقص فيها مفتوح اذ حصرها وتقسيمها فى ذلك جعلى لاحصرى .

والظاهر أن هذه العلوم جديرة بأن تسمى مباحث علم العربية فقط ، فكيف يكون كل من الشعر والقريض والقافية علما مستقلا برأسه وكل من النحو والصرف والاشتقاق علما برأسه . وانظر ما المراد بالتاريخ ويكونه من العلوم العربية مع أن أول من ألف فيه علماء اليونان وأول ما ظهر فى هذا الفن كتب « اوميروس » فى واقعة « تروادة » ولم تؤلف فيه العرب الا فى الأزمنة الأخيرة ، اللهم الا أن يكون المراد بالتاريخ طريقة انشاء تواريخ الحوادث السنوية على أسلوب حساب الجمل ، فيكون أيضا تسميته علما من قبيل التوسع فى تعريف العلم . وعلم الخط قديم أيضا فالافرنج يدخلون هذه المباحث فى علم تركيب الكلام ، بل ويعدون منه المنطق والوضع والمناظرة .

ثم ان اللغة الفرنساوية كغيرها من اللغات الافرنجية لها اصطلاح خاص بها ، وعليه ينبنى نحوها ، وصرفها ، وعروضها ، وقوافيها ، وبيانها ، وخطها ، وانشاؤها ، ومعانيها ، وهذا ما يسمى « اغرماتيقى » فحينئذ سائر اللغات ذات القواعد لها فن يجمع قواعدها ، سواء كانت لدفع الخطأ فى القراءة أو الكتابة فيها أو لتحسينها ، فحينئذ ليست اللغة العربية هى المقصورة على ذلك ، بل كل لغة من اللغات يوجد فيها ذلك ، نعم اللغة العربية أفصح اللغات ، وأعظمها ، وأوسعها ، وأحلاها على السمع ، فحينئذ العالم باللغة اللاطينية يعرف سائر ما يتعلق بها ، فله ادراك فى النحو فى حد ذاته وفى غيره كالصرف ، فمن الجهل أن يقال : انه لا يعرف شيئا ، بدليل جهله باللغة العربية ، واذا تبحر الانسان فى لغة من اللغات كان عالما باللغة الأخرى بالقوة ، يعنى أنه لو ترجم له ما فى اللغة الأخرى وعبر له عنه كان قابلا لتلقيه ومقابلته بلغته ، بل ربما

كان يعرفه من قبل ، ويعرف زيادة عليه ، ويبحث فيه ، (ص ٦٢) ويبطل منه ما لا يقبله العقل ، كيف والعلم هو الملكة وحينئذ فقد لا يعرف الانسان المطولات باللغة العربية ، ويعرف ذلك باللغة الفرنساوية لو ترجم له ، على أن كل لغة مخصوصة فلها مطولها وأطوالها وسعدها (١) نعم ليس كل مائع ماء ، ولا كل سقف سماء • ولا كل بيت بيت الله ، ولا كل محمد رسول الله وكما قال الشاعر :

وهيهات ما كل النسيم حجازيا
ولا كل نور يبهج الشرق والغربا

وقال آخر :

وما كل مخضوب البنان بثينة ولا كل مسلوب الفؤاد جميل

فلا شك أن لسان العرب هو أعظم اللغات وأبهج :

وهل ذهب صرف يحاكيه بهرج

ولله در من قال :

يليق الخطاب اليعربى بأهله
فيهدى الوفا للنقص والحسن للقبح
ومن شرف الأعراب أن محمدا
أتى عربى الأصل من عرب فصح
وأن المثانى أنزلت بلسانه
بما خصصته فى الخطاب من المدح

ومع ما يتراءى أن الأعجام لا تفهم لغة العرب اذا لم تحسن التكلم بها كالعرب فهذا لا أصل له ، ومما يدلك على ذلك أنى اجتمعت فى « باريس » بفاضل من فضلاء الفرنساوية شهير فى بلاد الافرنج بمعرفة اللغات المشرقية ، خصوصا اللغة العربية والفارسية يسمى « البارون سلوسترى داساس » وهو من أكابر « باريس » وأحد أعضاء جملة جمعيات من علماء فرنسا وغيرها ، وقد انتشرت تراجمه

(١) السعد والأطول والمطول شروح وتعليقات لكتاب الخطيب القزوينى فى علم البلاغة •

فى « باريس » وشـــاع فضـــله فى اللغـــة العربيـــة ، حتى انه لخص شرحا للمقامات الحريرية ، وسماه مختار الشروح ، وقد تعلم اللغة العربية على ما قيل بقوة فهمه ، وذكاء عقله ، وغزارة علمه ، لابواسطة معلم الا فى مبدأ أمره ، ولم يحضر مثل الشيخ خالد (١) فضلا عن حضور المغنى (٢) مع أنه يمكنه قراءة المغنى ، كيف وقد درس البيضاوى عدة مرات ، غير أنه حين يقرأ ينطق كالعجم ولايمكنه أن يتكلم بالعربية الا اذا كان بيده الكتاب ، فاذا أراد شرح عبارة أغرب فى الألفاظ التى يتعـذر عليه تصحيح نطقها • ولنـذكر لك خطبته فى شرحه لمقامات الحريرى لتعرف نفسه فى التأليف، وقلم عبارته ، فانه بليغ ، وان كان به يسير من الركاكة ، وسبب ذلك أنه تمكن من قواعد الألسن الافرنجية ، فلذلك مالت اليها عبارته فى العربية ، قال فى طالعة شرحه التى حاول فيها الجرى على نهج دينه ودين الاسلام من غير أن يغبن أحدهما :

« بسم الله المبدىء المعيد • الحمد لله العالى المتعالى • الذى له الأسماء الحسنى • ولايخالط صفاته عز وجل من صفات المخلوق شىء أقصى ولا أدنى • العليم الذى ليس لعلمه نهاية ، والحكم الحكيم الذى حكمه وحكمته وراء كل حد وغاية • لا يحصر لاهوت وجوده زمان ومكان • ولا يشوب صفاء جبروته شائبة زيادة ولا نقصان • مسبب الأسباب الذى لا يتحرك فى أطراف الأرض والسماء متحرك الا بقدرته وارادته • ولا يتكلم فى أكناف الآفاق متكلم الا بالهامه وافادته • أحمده حمد من اعترف بتقصير فهمه ، وضعف عقله فهداه برحمته وتوفيقه الى تحصيل بعض العلوم والفنون • وأشكر له شكر من كان يخبط فى ظلام الجهل فأخرجه برافته وتأييده الى

---

(١) كتاب ابتدائى فى النحو •

(٢) كتاب للمنتهين فى النحو •

فضاء الرشد ونور التمييز حتى عرف الحق اليقين من أباطيل الظنون. ثم أتوسل اليه سبحانه وتعالى بأنبيائه المرسلين . وأوليائه المقربين. الذين كل واحد منهم كالغرة على جبهة الدهر . وكالتاج على مفرق العصر . وأسأله عز وجل أن يجعلنى من عباده المهتدين . الذين أنعم عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين ، انه على كل شيء قدير ، وباجابة هذا الدعاء جدير .

أما بعد : لما فضل الله جنس الناس على سائر المبتدعات بفوائد الأفهام ، واختص بنى آدم من بين أصناف الحيوانات بكرامة الكلام ، بعث فى كل أمة من الأمم من يكون فى تمهيد قواعد البلاغة واستنباط أحكام شريعتها معروفا مشهورا ، ويصير لسالك طريقة الفصاحة اماما ودستورا ، فممن استهر بذلك بين الأنام . وصار المشار اليه فى هذا الباب عند أهل الاسلام ، مؤلف المقامات المشهور بالحريرى ، وهو الشيخ الامام أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان البصرى الذى ازدرى من كان قبله من الأدباء والفصحاء ، وأجهد من جاء بعده من الظرفاء والبلغاء ، فانى لما رأيت أن كتابه المذكور ، لم يزل مذ ألفه الى يومنا هذا لعلم الأدب كالعلم المشهور ، يحسبه الخاصة والعامة واسطة عقده ، وخلاصة نقده ، ويعتقدونه نور مصباحه ، وضياء صباحه ، بل لا يشك أحد منهم أنه أزهار بستانه . وأثمار جنانه . وزلال مائه . ونسيم هوائه ، أحببت أن أشرحه شرحا متوسطا بين الايجاز والتطويل ، أكشف الغطاء عن مشكلاته ومجملاته بالتفسير والتفصيل .

وقد شرح المقامات الحريرية من علماء المشرق والمغرب كثير ، وذكرهم الحاج خليفة فى كتابه المسمى « كشف الظنون ، عن أسامى الكتب والفنون » ، وما وصل يدى اليه من مؤلفاتهم شروح أربعة منها « غريب الايضاح فى غريب المقامات الحريرية » للامام برهان الدين أبى الفتح ناصر بن عبد السيد المطرزى الخوارزمى

المتوفى سنة عشر وستمائة ، وهذا الشرح مع وجازته كتاب مفيد محصل للمقصود .

والمطرزى كانت له معرفة تامة بالنحو واللغة والشعر وأنواع الأدب ، وهو صاحب كتاب « المغرب » تكلم فيه على الألفاظ التى يستعملها الفقهاء من الغريب .

ومنها كتاب « شرح ماغمض من الألفاظ اللغوية ، من المقامات الحريرية » تأليف الشيخ محب الدين عبد الله بن الحسين العكبرى البغدادى المتوفى سنة عشر وستمائة،قال:انى رأيت المقامات الحريرية مشحونة بالألفاظ اللغوية ، وهى أحد الكتب التى عنى بها علماء العربية ، ودعانى ذلك الى تفسير ما غمض من ألفاظها على الايجاز ، وقد كنت عثرت لبعض الناس على شىء من ذلك الا أنه أسهب بما لا يحتاج اليه ، وربما فسر اللفظة بغير ما قصد منشئها .

ومنها « شرح المقامات » للأستاذ اللغوى النحوى أبى العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القسى الشريشى المتوفى سنة تسع عشرة وستمائة وهو شرح طويل ، ذكر الشريشى أنه لم يترك فى كتاب من شروح المقامات فائدة الا استخرجها،ولا عائدة الا استدرجها، ولا نكتة الا علقها ، ولا غريبة الا استحلقها ، حتى صار شرحه تأليفا فى المقامات يغنى عن كل شرح تقدم فيها ، ولا يحوج الى سواه فى لفظة من ألفاظها ، ولا معنى من معانيها ، وقد أخذ شيئا كثيرا من شرح ابن ظفر الصقلى صاحب كتاب « سلوان المطاع » فى عدوان الأتباع المتوفى بمدينة حماة سنة خمس وستين وخمسمائة .

ومن شرح الفنلهجى ، وهو الشيخ الامام تاج الدين أبو سعيد محمد بن سعادات عبد الرحمن بن محمد الخراسانى المروزى

الفندهجي ، وقيل : البندهجي ، المتوفى بمدينة دمشق سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

ومنها شرح آخر تأليف الشيخ شمس الدين أبي بكر محمد ابن أبي بكر الرازي ، صاحب أسئلة القرآن ، ومختار الصحاح ، المتوفى بعد سنة ستين وستمائة . وهذا الشرح لم يذكره الحاج خليفة في كتابه المذكور ، وهو شرح لطيف ، يشهد لصاحبه بكمال الأدب الا أن النسخة التي هي في ملكي نسخة ناقصة سقط منها نحو نصف الكتاب حتى لم يبق الا شرح الخطبة ، ثم شرح المقامة الخامسة والعشرين ، أخذا من قول الحريري : واني والله طالما تلقيت الشتاء بكافاته الى آخرها ، وشرح ما يتلوها من المقامات الى (١) قوله في المقامة الخمسين .

(ولم تزل معتكفا على القبيح الشنع)

هذا ما كان لي من شروح المقامات ، وقد اجتمع عندي أيضا نسخ ست من كتاب المقامات بلا شرح ، غير أن أكثرها يوجد به من التعليقات والحواشي ما ينتفع به القارىء ، وقد اخترت من تلك الشروح والحواشي كل مايحتاج اليه طالب العلم في تحصيل المقصود، ويستعين به الراغب في الأدب ، على ادراك المطلوب ، ثم أضفت الى ذلك شيئا كثيرا نقلته من كتب أئمة النحو واللغة ، ومن مجمع الأمثال ، للعلامة الميداني ، وكتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان ، ثم من ديوان البحتري ، ومن ديوان المتنبي ، وشرح المعلقات للزوزني ، وغير هذا من كتب الأدب كل ذلك ليتيسر على من أعجبه الغوص في بحار اللغات العربية أن يظفر من دررها بكل يتيمة عقيلة ، وليسهل على المولع بغرائب العلوم الأدبية الشرقية أن يصل من جواهر معادنها الى كل فلذة ثمينة جزيلة ، وانما المرجو ممن

---

(١) في النسخة المطبوعة ببولاق : « الا » .

نظر فى هذا الشرح المختار أن لا يؤاخذنى على ما ظهر عليه من العثرات ، بل أن يستر بذيل كرمه ما استبان له من العورات • والله أسأله أن يجعل هذا الكتاب لمن تصفحه من أهل الشرق والغرب نافعا مفيدا • ولجميع من أسرع الى مورده من أبناء جنسنا ومن غير جنسنا هنيئا مريئا حميدا انتهى كلامه •

وقال فى المقدمة الفرنساوية لهذا الكتاب : ان المقامات البديعية تفضل المقامات الحريرية •

وقد ترجم الى الفرنساوية عدة مقامات من الاثنتين فى مجموعه: كتاب الأنيس المفيد ، للطالب المستفيد ، وجامع الشذور ، من منظوم ومنثور • وبالجملة فمعرفته خصوصا فى اللغة العربية مشهورة ، مع أنه لا يمكنه أن يتكلم بالعربى الابغاية الصعوبة • وقد رأيت له فى بعض كتب توقيفات عظيمة ، وايرادات جليلة ، ومناقضات قوية، وله اطلاع عظيم على الكتب العلمية المؤلفة فى سائر اللغات ، وسبب ذلك كله تمكنه من لغته بالكلية ، ثم تفرغه بعد ذلك لمعرفة اللغات شعر :

العلم لايدرك بالتمنى عليك بالتكرار والتأنى
كم أعجمى ألكن أخن أدرك بالتكرار كل فن

ومن جملة مؤلفاته الدالة على فضله كتاب فى النحو سماه التحفة السنية ، فى علم العربية ، فانه ذكر فيه علم النحو على ترتيب عجيب لم يسبق به أبدا ، وله مجموع سماه المختار من كتب أئمة التفسير والعربية فى كشف الغطاء عن غوامض الاصطلاحات النحوية واللغوية ، فقد جمعه وترجمه من العربية الى الفرنساوية ، وله غير ذلك من المؤلفات والتراجم خصوصا فى اللغة الفارسية ، فانه بارع فيها غاية البراعة ، وشهرته بالفضل فى بلاد الافرنج لاتنكر ، حتى انه قد أتحف بعلامات الشرف من كبار ملوكهم • واتساع دائرة

هذا الحبر فى معرفة لغات أهل المشرق والمغرب القديمة والحديثة بها يسهل تصديق ما قيل فى حق الفارابى فيلسوف الاسلام : من أنه كان يحسن سبعين لسانا ولنذكر ترجمته هنا مراعاة للنظير ، فنقول :

هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ التركى الفارابى الحكيم الفيلسوف فيلسوف الاسلام الماهر الباهر ، قدم على سيف الدولة بن حمدان ، وكان مجلسه مجمع الفضلاء فى جميع العلوم ، فأدخل عليه ، وهو بزى الأتراك ، وكان ذلك عادته فوقف بين يديه ، فقال له سيف الدولة : اجلس ، فقال : حيث أنت أو حيث أنا ؟ فقال : حيث أنت ، فتخطى رقاب الناس ، حتى انتهى الى مجلس سيف الدولة وزاحمه فى مسنده حتى أخرجه عنه ، وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان يسارهم به قال أن يعرفه أحد، فقال لهم بذلك اللســـان : ان هذا الشيخ قد أساء الأدب ، وانى مسائله عن أشـــياء ان لم يعرف بهـا فأخرجوه ، فقال له أبو نصر بذلك اللسان : أيها الأمير اصبر ، فان الأمور بعواقبها ، فتعجب سيف الدولة منه ، وقال له : أتحسن هذا اللسان ؟ فقال : نعم ، أحسن أكثر من سبعين لسانا، فعظم عنده ، ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين فى المجلس فى كل فن ، ولم يزل كلامه يعلو ، وكلامهم يسفل ، حتى صمت الكل وبقى يتكلم وحده ، ثم أخـذوا يكتبون ما يقول ، فصر فهم سيف الدولة وخلا به ، فقال له : هل لك فى أن تأكل ؟ قال : لا ، قال : فهل تشرب ؟ قال : لا ، قال : فهـل تسمع ؟ قال : نعم ، فأمر سيف الدولة باحضار القيان ، فحضر كل ماهر فى هذه الصناعة بأنواع الملاهى • فلم يحرك أحد منهم آلته الا عابه أبو نصر ، وقال له : أخطأت فقال له سيف الدولة : فهل تحسن فى هذه الصنعة شيئا ؟ قال : نعم ، ثم أخـرج من وسطه خريطة ،ففتحها ، وأخرج منها عيدانا فركبها ، ثم لعب بها ، فضحك كل من فى المجلس ثم فكها ، وركبها ، ولعب بها ، فبكى كل من فى

المجلس ، ثم فكها ، وركبها ، ولعب بها ، فنام كل من في المجلس حتى البواب ، فتركهم نياما وخرج ! .

وكان منفردا بنفسه ، لا يجالس الناس ، وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالبا الا عند مجتمع ماء ، أو مشتبك أشجار ورياض ، يؤلف هناك كتبه ، ويتناوبه (١) المشتغلون عليه وكان يلازم غياض السفرجل ، وربما صنف هناك ، وقد ينام ، فتحمل الريح تلك الأوراق ، وتنقلها من مكان الى مكان . قيل : وهو السبب في نقص بعض مصنفاته فانه كان يصنف في الرقاع دون الكراريس .

وكان أزهد الناس في الدنيا متقللا منها أجرى عليه سيف الدولة في كل يوم أربعة دراهم ، ومن شعره :

لما رأيت الزمان نكسا ... وليس في الصحبة انتفاع
كل رئيس به ملال ... وكل رأس به صداع
لزمت بيتي وصنت عرضا ... به من العزة اقتناع
أشرب مما اقتنيت راحا ... لها على راحتي شعاع
لي من قواريرها ندامى ... ومن قراقيرها سماع
وأجتني من علوم قوم ... قد أقفرت منهم البقاع

ومنه :

أخي خل حيز ذي باطل ... وكن بالحقائق في حيز
فما الدار دار مقام لنا ... ولا المرء في الأرض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على ... أقل من الكلم الموجز
وهل نحن الا خطوط وقعن ... على نقطة وقع مستوفز
محيط العوالم أولى بنا ... فماذا التزاحم في المركز

توفي أبو نصر الفارابي سنة ٣٣٩ من الهجرة .

---

(١) في المطبوعة البولاقية : « ويتنابه » .

ثم ان الفنون باللغة الفرنساوية قد بلغت درجة أوجها حتى ان كل علم فيه قاموس مرتب على حروف المعجم فى ألفاظ العلوم الاصطلاحية ، حتى علوم السوقة ، فانها لها مدارس كمدرسة الطباخة ، يعنى مجلس علماء الطباخة وشعرائها ، وان كان هذا من أنواع الهوس ، غير أنه يدل على اعتناء هذه البلاد بتحقيق سائر الأشياء ، ولو الدنيئة وسواء فى ذلك الذكور والاناث ، فان للنساء تآليف عظيمة ومنهن مترجمات للكتب من لغة الى أخرى ، مع حسن العبارات وسبكها وجودتها ، منهن من يتمثل بانشائها ومراسلاتها المستغربة ، ومن هنا يظهر لك أن قول بعض أرباب الأمثال : جمال المرء عقله ، وجمال المرأة لسانها ، لا يليق بتلك البلاد ، فانه يسأل فيها عن عقل المرأة وقريحتها وفهمها وعن معرفتها ٠

ثم العلوم الأدبية الفرنساوية لا بأس بها ، ولكن لغتها وأشعارها مبنية على عادة جاهلية اليونان وتآليفهم ما يستحسنونه، فيقولون مثلا : اله الجمال ، واله العشق ، واله كذا ، فألفاظهم فى بعض الأحيان كفرية صريحة وان كانوا لا يعتقدون ما يقولون ، وانما هذا من باب التمثيل ونحوه ٠ وبالجملة فكثير من الأشعار الفرنساوية لا بأس به ، ولنذكر لك شيئا من بعض أشعارهم مترجمة من كلام بعضهم للعبد الفقير :

واذا القلوب تعلقت رأت الجميع جميلا
كسفينة تسعى الى شعب يكون مهولا
لهفى على زمن الهنا ان صح كان بخيلا

وقوله مترجما لى :

ودع القلب فيك يا قاتلى يا خيال المسعد الزائر
ان روحى بالجراح اصطلت وعلى البرء لست بالقادر
وسرورى فى الهوى لمحة مثل زهر الورق الزاهر

ومن القصيدة المسماة : نظم العقود ، فى كسر العود ، للخواجة يعقوب المصرى منشأ ، الفرنساوى استيطانا ، وقد اعتنيت بترجمتها سنة ألف ومائتين واثنتين وأربعين : ، وأخرجتها من ظلمات الكفر الى نور الاسلام قول صاحبها ونظمه للعبد الفقير :

زادنى الحال اذ صفالى حسانى   وغنائى بالعود والألحان
باسم ربى والسادة الأعيان   وترنمت شجوة بالحسان

ويسعدى ذات الجبين المفدى

فصغى سمعها الى انشادى   ورمى النار لحظها فى فؤادى
فلهذا شعرى غدا فى اتقاد   وبدا من حماسه فى انفراد

لذوى الفهم والمعارف يهدى

أحرق العشق قلبها كاحتراقى   فأتت تطفىء اللظى بالعناق
فتضاممنا ضمة المشتاق   وتلاثمنا عادة العشاق

فتثنت لتخجل الغصن قدا

شنف السمع من رقيق التغانى   واستمع يا أخى صوت المثانى
يا خليلى بالله هلا ترانى   أننى قد أحببت شعر«ابن هانى»

بعد أن كان قد توسد لحدا

وبعد هذا بعدة أبيات تخلص الشاعر الى ذم العشق وتوابعه فقال :

واحيائى واخجلتى صار فنى   أننى فى هوى الملاح أغنى
برخيم الغنا كظبى أغن   وبأوتارى أبتدى وأثنى

ما أرى هذا للفضائل أجدى

أفأيامى كلهــا لى عقيمــه أو مــالى عواقب مستقيمه
بل على طاعة الهوى مستديمة أفما هذه مــراق ذميمــه

أقتفى هزلها وأرفض جد

أعلى احتساء كأس نصيب خامــل غير كافــل لأريب
مــع أنى والله غير مــريب همتى همة الذكى النجيب

تقنص المجد والسوا تتعدى

وقال يذم نفسه ويوبخها على العزم على فراق محبوبته، لاسيما وهى تتأذى من فراقه :

ويح عز وسؤدد نشتريــه بنواح الملاح اذ نشتهيه
يا فؤادى سل عنه أى فقيه يغفر الذنب من قتال بنيه

لنوال الفخار علك تهدى ؟

يافؤادى قد أسلمتك الأمورا وأباحتك متجرا لن يبورا
أفترضى على الظبا أن تجورا لست ألفيك آسفا مقهورا

حيث قديت قلبها الآن قدا

وهذه القصيدة كغيرها من الأشعار المترجمة من اللغة الفرنساوية عالية النفس فى أصلها ، ولكن فى الترجمة تذهب بلاغتها ، فلا تظهر علو نفس صاحبها • ومثل ذلك لطائف القصائــد العربية ، فانــه لا يمكن ترجمتها الى غالب اللغات الافرنجية من غير أن يذهب حس ، بل ربما صـــارت باردة ، وسيــأتى تتميم الكلام على غالب الآداب الفرنساوية والعلوم والفنون •

الفصل الثالث

(فى تدبير الدولة الفرنســية)

ولنكشف الغطاء عن تدبير الفرنساوية ، ونستوفى غالب أحكامهم ، ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر ، فنقول : قد سلف لنا أن « باريس » هى كرسى بلاد الفرنسيس ، وهى محل اقامة ملك فرنسا وأقاربه وعائلته المسماة « البربون » (بضم الباء الموحدة ، وسكون الراء ، وضم الباء الثانية) فلا يكون ملك فرانسا الا من هذه العائلة .

ومملكة الفرنساوية متوارثة ، ومسكن ملك فرنسا (سراية) تسمى ، « التولرى » (بضم التاء وكسر الواو وكسر الراء) ، والغالب أن الفرنساوية يعبرون عن ديوان فرنسا بقولهم : « كابينة التولرى يعنى ديوان هذه السراية ، أى ديوان الملك .

ثم ان أصل القوة فى تدبير المملكة لملك فرنسا ، ثم للجماعة أهل « شمبر دوبير (١) » (بفتح الشين ، وسكون الميم) يعنى ديوان « البير » (بفتح الموحدة) أى أهل المشور الأولى ، ثم لديوان رسل العمالات ، ثم ان الديوان الأول ؛ يعنى ديوان «البر » هو فى قصر « بباريس » يسمى قصر « لقسمبورغ » والديوان الثانى

---

(١) Chamlre des paris بالفرنسية أى مجلس الأعيان ويلاحظ أن المؤلف استعمل (de) وهى للمفرد ، مكان (des) وهى للجميع .

فى قصر « بوربون » ، ثم يلى ديوان رسل العمالات ديوان الوزراء والوكلاء ، ثم ديوان يسمى « الديوان الخصوصى » ، وبعد ذلك يوجد ديوان يسمى « ديوان سر الملك » وديوان يسمى « ديوان الدولة المشورة » فحينئذ ملك فرنسا صاحب قوة تامة فى مملكته بشرط رضاء تلك الدواوين المذكورة ، وله خصوصيات آخر سيأتى ذكرها فى السياسة الفرنساوية •

ووظيفة أهل ديوان « البير » تجديد قانون مفقود ، أو ابقاء قانون موجود على حاله ، ويسمى القانون عند الفرنساوية : شريعة : فلذلك يقولون : شريعة الملك الفلانى ومن وظيفة ديوان « البير » أن يعضد حقوق تاج المملكة ، ويحامى عنه ، ويمانع سائر من يتعرض لها • وانعقاد هذا الديوان يكون مدة معلومة من السنة ، فى زمن اجتماع ديوان رسل العمالات ، باذن ملك الفرنسيس • وعدد أهل ذلك الديوان غير منحصر فى عدة مخصوصة ، ولا يقبل دخول الانسان فيه الا وهو ابن خمس وعشرين سنة ولا يشرك فى الشورى الا وهو ابن ثلاثين سنة مالم يكن من بيت المملكة ، والا فبمجرد ولادته يحسب من أهـــل هذا الديـوان ويشرك فى المشـــورة حين يبلغ عمره خمسا وعشرين سنة •

وكانت وظيفة « البيرية » متوارثة للذكور فيقدم أكبر الأولاد ، ثم بعد موته يقدم من يليه وهكذا •

ووظيفة ديوان رسل العمالات غير متوارثة ، ووظيفتهم امتحان القـــوانين والسـياسات والأوامر والتدبير والبحث عن ايراد الدولة ومدخولها ومصرفها ، والمنازعة فى ذلك والممانعة عن الرعية فى المكوس والفرد (١) وغيرها ، ابعادا للظلم والجور وهذا الديوان

---

(١) الفرد جمع الفردة وهى الضريبة ، وهى كلمة تستعملها العامة فى مصر الى وقتنا هذا •

مؤلف من عدة رجال ينصبهم أهالي العمالات وعددهم أربعمائة وثمانية وعشرون رسولا ولا يقبل الا من يكون سنة أربعين سنة . ولابد أن يكون لكل واحد منهم عقارات تبلغ فردتها ألف فرنك كل سنه .
وأما الوزراء فانهم متعددون ، فمنهم وزير الأمور الداخلية ، ثم وزير الحرب ، ثم وزير الأمور الخارجية ، ثم وزير البحر والخارجين من بلاد الفرنسيس ، النازلين ببلاد يعمرونها ، فى غير بلاد الفرنسيس، ثم وزير الخزينة ثم وزير الأمور الدينية ، ثم وزير تعليم الفنون والصنائع ، ثم وزير التجارات ووزير الأمور الداخلية نظير (الكتخدا) ببر مصر ، ووزير الخزينة نظيرا لخازندار ، ووزير التجارات نظير ناظر التجارات ، ووزير الأمور الخارجية نظير رئيس افندى بالدولة العثمانية ، ووزير الحرب نظير ناظر عموم الجهادية ، وهكذا ، غير أنه عندنا ليس وزيرا ، وعندهم يعدونه من الوزراء .

وأما الديوان الخصوصى فانه تخصيص الملك لجماعة بمشورته اياهم على مادة مخصوصة ، والغالب على أهل هذا الديوان كونهم من أقاربه ووزرائه .

وأما ديوان سر الملك فانه يتألف من وزراء السر ومن أربعة وزراء أخر ، لهم وزارة مطلقة ثم جماعة من أرباب المشورة فى الدولة .

وأما ديوان الدولة فانه يتألف ممن يعينه الملك من أقاربه من الوزراء التسعة الكاتمين سر الدولة ، ثم من وزراء الدولة المطلقين ، ومن أرباب المشورة ، ومن جماعة وكلاء على التقارير ، ومن جماعة يستمعون المشورة ، ليتعلموا تدبير الدولة .

ومن ذلك يتضح لك أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وأن السياسة الفرنساوية هى قانون مقيد بحيث ان الحاكم هو الملك بشرط ان يعمل بما هو مذكور فى القوانين التى يرضى بها أهل الدواوين ، وأن ديوان « البير » يمانع عن الملك وديوان رسل العمالات

يحامي عن الرعية ، والقانون الذى يمشى عليه الفرنساوية الآن ويتخذونه أساسا لسياستهم هو القانون الذى ألفه لهم ملكهم المسمى : لويز الثامن عشر (بضم اللام وكسر الواو) ولازال متبعا عندهم ومرضيا لهم ، وفيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل ٠

والكتاب المذكور الذى فيه هذا القانون يسمى الشرطة (١) ومعناها فى اللغة اللاطينية ورقة ثم تسومح فيها ، فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة ، فلنذكره لك ، وان كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى ، ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك ، حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا ، والعدل أساس العمران ٠

ولنذكر هنا نبذة مما قاله فيه العلماء والحكماء أو فى ضده ، من كلام بعضهم : ظلم اليتامى والأيامى مفتاح الفقر ٠ والحلم حجاب الآفات ٠ وقلوب الرعية خزائن ملكها ، فما أودعه اياها وجده فيها ٠ وقال آخر : لا سلطان الا برجال ولا رجال الا بمال ، ولا مال الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل ٠ وقيل فيما يقرب من هذا المعنى : سلطان الملوك على أجسام الرعايا لا على قلوبهم ٠ وقال بعضهم : أبلغ الأشياء فى تدبير المملكة تسديدها بالعدل ، وحفظها من الخلل ٠ وقيل : اذا أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع ، ان المولى اذا كلف عبده مالا يطيعه فقد أقام عذره فى مخالفته ٠ وقال بعضهم شعرا يفيد أن النصر يتوقف على العدل :

---

(١) La Charte.

تروم ولاة الجـور نصرا على العـدا
وهيهات يلقى النصـر غير مصـيب
وكيف يروم النصر من كان خلفه
سـهام دعاء من قسى قلـوب ؟

وقال آخـر :

لا يفـلح المغتال والظلـوم والبغى مرعى نبته وخيم
فمضجع الظالم بئس المضجع ومصرع الباغى فبئس المصرع
ان القصاص واقع بالمثـل والدهر يجزى بيسير الفعل

وفى هذا القانون عدة مقاصـد : المقصد الأول الحق العام « للفرنساوية » • الثانى : كيفية تدبير المملكة : الثالث فى منصب ديوان « البير » • الرابع : فى منصب « ديوان رسل العمالات » الذين هم أمنـاء الرعايا ونوابهم • الخامس : فى منصب الوزراء • السادس : فى طبقات القضاء وحكمهـم • السـابع : فى حقوق الرعية • قال صاحب الشرطة المذكورة :

الكلام على حق الفرنساوية المنصوب لهم

المادة الأولى : سائر الفرنساوية مستوون قدام الشريعة •

المادة الثانية : يعطون من أموالهم بغير امتياز شيئا معينا لبيت المال ، كل انسان على حسب ثروته •

المادة الثالثة : كل واحد منهم متأهل لأخذ أى منصب كان وأى رتبة كانت •

المادة الرابعة : ذات كل واحد منهم يستقل بها ، ويضمن له

حريتها ، فلا يتعرض له انسان الا ببعض حقوق مذكورة فى الشريعة، وبالصورة المعينة التى يطلبه بها الحاكم •

المادة الخامسة : كل انسان موجود فى بلاد الفرنسيس يتبع دينه كما يحب لا يشاركه أحد فى ذلك ، بل يعان على ذلك ويمنع من يتعرض له فى عبادته •

المادة السادسة: يشترط أن تكون الدولة على المله (القاثوليقية) الحوارية الرومانية •

المادة السابعة : تعمير كنائس (القاثوليقية) وغيرهم من النصرانية يدفع له شىء من بيت مال النصرانية ولا يخرج منه شىء لتعمير معابد غير هذا الدين •

المادة الثامنة : لا يمنع انسان فى فرنسا أن يظهر رأيه وأن يكتبه ، ويطبعه بشرط أن لا يضر ما فى القانون فاذا ضر أزيل •

المادة التاسعة : سائر الأملاك والأراضى حرم ، فلا يتعدى أحد على ملك آخر •

المادة العاشرة : للدولة دون غيرها أن تكره انسانا على شراء عقاره لسبب عام النفع ، بشرط أن تدفع ثمن المثل قبل الاستيلاء •

المادة الحادية عشرة : جميع ما مضى قبل هذا القانون من الآراء والفتن يجب نسيانه ، وكذلك ما وقع من المحكمة وأهل البلد •

المادة الثانية عشرة : أخذ العساكر يرتب وينقص عما كان عليه وقد يعين بقانون معلوم وضع عساكر فى البر والبحر •

كيفية تدبير المملكة الفرنساوية

المادة الثالثة عشرة : ذات الملك محترمة ووزراؤه هم الكفلاء فى كل ما يقع ، يعنى هم الذين يطالبون ، ويحكم عليهم ، ولا يمكن أن يمضى حكم الا اذا أنفذه أمر الملك •

المادة الرابعة عشرة : الملك هو أعظم أهل الدولة فهو الذى يأمر وينهى فى عساكر البر والبحر وهو الذى يعقد الحرب والصلح والمعاهدة والتجارة بين ملته وغيرها ، وهو الذى يولى المناصب الأصلية ، ويجدد بعض قوانين وسياسات ، ويأمر بما يلزم ، ويمضيه اذا كان فيه منفعة للدولة ٠

المادة الخامسة عشرة : تدبير أمور المعاملات بفعل الملك وديوان « البير » و « وديوان رسل العمالات » ٠

المادة السادسة عشرة : يقرر الملك وحده جزاء القوانين ، ويأمر باعلانها واظهارها ٠

المادة السابعة عشرة : يبعث القانون بأمر الملك الى ديوان « البير » أولا ، ثم الى ديوان رسل العمالات الا قانون الجبايات والفردة ، فانه يبعث أولا الى ديوان رسل العمالات ٠

المادة الثامنة عشرة : تنفذ الدولة القانون اذا رضى به جمهور كل من الديوانين ٠

المادة التاسعة عشرة : لأحد الديوانين أن يلتمس من الملك اظهار قانون فى أمر كذا ، وأن يبين له فائدة وضع ذلك القانون ٠

المادة العشرون : يصنع هذا القانون بأحد الديوانين فى مجلس سرى ، وما صنعه أحد الديوانين واستقر رأيه عليه يبعثه للديوان الآخر بعد التفكر عشرة أيام ٠

المادة الحادية والعشرون : اذا رضى الديوان الآخر بالقانون فانه يسوغ عرضه على الملك فاذا طرحه الديوان الآخر لا يمكن عرضه له أى لذلك الديوان مدة اجتماعه فى هذه السنة ٠

الثانية والعشرون : الملك وحده هو الذى يأذن بالقانون ويظهره للرعية ٠

الثالثة والعشرون : ماهية الملك محدودة له مدة توليته على كيفية واحدة لا تزيد ولا تنقص عن القدر المعين له عند توليه من مجلس ديوان « البير » يعنى ديوان المشورة الأولى ٠

الرابعة والعشرون : ديوان « البير » هو جزء ذاتى لتشريع القوانين التدبيرية ٠

الخامسة والعشرون : يجتمع هذا الديوان ويفتح مدة أشهر بأمر الملك فى زمن واحد مع انفتاح ديوان رسل العمالات فيفتحان معا فى يوم واحد ويغلقان كذلك ٠

السادسة والعشرون : لو اجتمع ديوان (١) « البير » قبل انفتاح ديوان رسل العمالات أو قبل اذن ملك فرنسا كان سائر الترتيب الصادر من هذا المجلس مدة الاجتماع ممنوع الامضاء وملغيا ٠

السابعة والعشرون : تسمية الشخص « بير فرانسا » هو حق الملك وعدد أهل ديوان « البير » غير محدود وللملك أن يلقب « البير » بأى لقب كان ، وله أن يجعل ذلك اللقب له مدة حياته ، وأن يجعله متوارثا لذريته ٠

الثامنة والعشرين : يمكن أن يدخل « البير » فى الديوان وهو ابن خمس وعشرين سنة ، ولا يبدى رأيه فى المشورة الا بعد بلوغه فى السن ثلاثين سنة ٠

التاسعة والعشرون : رئيس ديوان « البير » هو قاضى قضاة فرنسا مهردار ملكها أى وزير خاتم ملكها ، فان اعتذر خلفه من آهل الديوان من يعينه الملك لذلك ٠

---

(١) مجلس الأعيان ٠

الثلاثون : أقارب الملك وذراريه يكون لهم الدخول فى مرتبة «البيرية» بمجرد ولادتهم ، ويجلس كل منهم بعد رئيس ذلك الديوان، ولا يكون لهم كلمة ورأى فى المجلس الا بعد بلوغهم فى السن خمسا وعشرين سنة ٠

الحادية والثلاثون : لا يمكن لأحد من أهل مجلس « البير » أن يدخل فى ذلك الديوان عند انفتاحه الا باذن من الملك بأن يبعث رسولا فان فعلوا غير ذلك كان ما فعل بحضرتهم لاغيا ٠

الثانية والثلاثون : كل آراء ديوان « البير » يجب كتمها عن غيرهــم ٠

الثالثة والثلاثون : ديوان الملك هو الذى يستقل بالقضاء على الخيانة فى الدولة ونحوها من كل ما يضر الدولة مما هو مقرر فى القــوانين ٠

الرابعة والثلاثون : لا يمكن أن يقبض أحد على واحد من أهل ديوان « البير » الا بأمر ذلك الديوان ، ولا يمكن أن يحكم عليه غيرهم فى مواد الجنايات ٠

ديوان رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية

الخامسة والثلاثون : ديوان رسل العمالات مؤلف من جملة رسل ينتخبهم المنتخبون (بكسر الخاء) الذين يقل لهم « اللكتور » (بكسر اللام المشددة ا وسكون الكف) وترتيبها مصنوع بقوانين مخصــوصة ٠

السادسة والثلاثون : كل العمالات تبقى على ما هى عليه قبل هذه الشرطة من عدد مالها من الرسل ٠

السابعة والثلاثون : من الآن فصاعدا تختار الرسل لتمكث سبع سنوات لا خمسة ، كما كانت ٠

الثامنة والثلاثون : لا يصلح الانسان للدخول فى ديوان الرسل الا اذا بلغ أربعين سنة ، وكان له أملاك يدفع عليها ألف فرنك فــردة •

التاسعة والثلاثون : لابد أن يجمع فى كل عمالة خمسون ألف نفس موجود فيهم شرطا السن والملك المذكوران ، ليختار الرسل منها ، فان لم يكمل ممن يدفعون ألف فرنك خمسون وجب تكميلها ممن (١) لهم أملاك يدفعون عليها دون ألف فرنك ، ثم اختيار الرسل من جملة الخمسين •

الأربعون : شرط « اللكتور » أى المنتخب للرسل أن يكون له ملك يدفع فردته ثلثمائة فرنك ، وأن يكون قد بلغ من العمر ثلاثين ســنة •

الحادية والأربعون : رؤساء مجلس المنتخبين ينصبهم الملك ، فيدخلون فى أهل هذا المجلس •

الثانية والأربعون : يجب أن يكون نصف رسل العمالات نصاعدا مستوطنا عادة فى تلك العمالة •

الثالثة والأربعون : رئيس ديوان رسل العمالات ينصبه الملك ويختاره من خمسة رسل يعرضهم ذلك الديوان •

الرابعة والأربعون : مجالس هذا الديوان تكون جهرية الا اذا أراد خمسة من رسل العمالات كتم شىء ، فانه يجوز اخراج الناس الاجانب من الديوان •

الخامسة والأربعون : الديوان ينقسم الى دواوين صغيرة تسمى

---

(١) فى المطبوعة : « مما » •

« البورو » يعني مكاتب ، فأهل هذه « البورو » تمتحن الأشياء التي يستحسنها الملك ويبعثها لها ٠

السادسة والأربعون : لا يقع تصليح شيء في آداب سياسات فرانسا ، ولا يمضي الا اذا رضي به الملك وبحث فيه في تلك الدواوين الصغيرة ٠

السابعة والأربعون : ديوان رسل العمالات يتلقى تقارير طلب الفرد ، والمكوس ولا تصل الى ديوان « البير » الا اذا رضي بها ذلك الديوان ٠

الثامنة والأربعون : لا يمكن أن ينفذ أمر الملك في الفرد الا اذا رضي به الديوانان وأقره الملك ٠

التاسعة والأربعون : فردة العقار لا تقطع الا سنة فسنة ويمكن قطع غيرها لأجل معلوم ٠

الخمسون : على الملك أن يأمر بفتح الديوانين كل سنة ولكن متى أراد ، وله أن يبطل ديوان رسل العمالات ، بشرط أن يصنع ديوان رسل جديدا ، وأن لا يزيد في تجديد الآخر عن ثلاثة أشهر ٠

الحادية والخمسون : لا يمكن أن يقبض أحد على انسان من أهل مجلس رسل العمالات مدة فتح الديوان ، وشهرا ونصفا قبل فتحه ، وشهرا ونصفا بعده ٠

الثانية والخمسون : لا يمكن أن يقبض على أحد من أعضاء الديوان بسبب مادة من مواد العقوبات ، مادام الديوان مفتوحا ، ومادام اجتماع الديوان ، الا اذا بغت وهو متلبس بالخطيئة أو أذن الديوان بأخذه ٠

الثالثة والخمسون : عرض الحال الذى يعرض على أحد الديوانين لا يقبل الا اذا كان مكتوبا ، وآداب السياسة الفرنساوية لا تجوز أن يقدم الانسان تقريرا بنفسه فى المجلس ·

الــوزراء

المادة الرابعة الخمسون : يجوز أن يكون الوزير من أهل كل من الديوانين ، وله زيادة على ذلك حق الحضور فى أحدهما ، ومتى طلب أن يتكلم فى الديوان وجب أن يصغى الى كلامه ·

الخامسة والخمسون : يسوغ لديوان رسل العمالات أن يتهم الوزراء ، فتسمع دعواه فى ديوان « البير » ليحكم بينهم ذلك الديوان فيفصل خصومتهم ·

السادسة والخمسون : لا يتهم الوزير الا بخيانة فى التدبير بالرشوة أو باختلاس الأموال ، فيحكم عليه على حسب ما هو مسطر فى القوانين المخصوصة ·

طائفة القضاة

المادة السابعة والخمسون : الحكم حق الملك ، يعتبر كأنه صادر منه ، فيحكم القضاة المنصبون من الملك الذين لهم ماهية من بيت المال ، ويبتون الحكم باسم الملك ·

الثامنة والخمسون : اذا ولى الملك قاضيا وجب أبقاؤه ولا يجوز عزله .

التاسعة والخمسون : القضاة المنصبون وقت هذه الشرطة لا يمكن عزلهم ولو تجدد قانون آخر ·

الستون : اقامة قضاة المعاملات لا يمكن ابطالها ابدا ·

الحادية والستون : اقامة قضاة المصالحة تبقى ايضا ولكن قاضى المصالحة يجوز عزله ، وان كان منصبه يأتى له من الملك

الثانية والستون : لا شيء يخرج عن حكم هؤلاء القضاة ٠

الثالثة والستون : لا يسوغ بسبب ما تقدم تجديد محاكم أو مجالس زائدة الا بجمع قضاة النقباء الذين يقال لهم « بربوتال اذا احتاج الأمر الى ذلك ٠

الرابعة والستون : اقامة الدعوى والتشاجر بين الخصوم قدام الحاكم الشرعي تكون على رؤوس الأشهاد في مواد العقوبات ، الا اذا كان الذنب مضرا اشهاره بين العامة أو مخلا بالحياء ، فان أهل المحكمة يخبرون الناس بأن هذا الأمر يقع سرا ٠

الخامســة والســتون : اقامة (ص ٧٩) الجماعة المحكمين المسماة « جورية الجنايات » لا تبطل أبدا ، واذا لزم تغيير بعض شيء في مواد القضاة لا يمكن الا اذا كان بقانون من الديوانين ٠

السادسة والستون : قانون معاقبة الانسان بالاستيلاء على ما تملكه يده قد أبطل بالكلية ، ولا يمكن تجديده أبدا ٠

السابعة والستون : للملك أن يعفو عن الانسان ، وأن يخفف مواد العقوبات ٠

الثامنة والستون : كتب قوانين السياسات التي عليها العمل الغير المناقضة لما في هذا الشرطة لا ينسخ حكم ما فيها الا اذا تغير بقانون آخر ٠

حقوق الناس التي يضمنها الديوان

المادة التاسعة والستون : كل أهل العسكرية سوى أصحاب خدمة دائمة أو متروكين لوقت الحاجة ، وكل النساء المتوفى عنهن أزواجهن وهم في العسكرية يبقى لهم مدة حياتهم وظيفتهم ودرجتهم وخروجهـم ٠

السبعون : ديون الرعية التى في ذمة الديوان هى مضمونة على حسب اصطلاح الدولة مع أرباب الديون ·

المادة الحادية والسبعون : لم يفضل لأهل الشرف القديم من درجات الشرف الا الاسم فقط ، وكذلك لأرباب الشرف الجديد ، ثم لملك فرانسا أن يعطى درجة الشرف الفرنساوى لأى انسان شاء ولكن ليس له أن يخص من يعطيه ذلك برفع الفرد ونحوها عنه ، فليس للشرف مزية غير التسمية ·

الثانية والسبعون : من له علامة التمييز المسـماة درجـة « الشوالية » يعنى الفارس في فنه فان له أن يحفظها على الصورة التى يعينها ملك فرنسا لهذه الدرجة ·

الثالثة والسبعون : القبائل والنزلات الخارجة من فرنسـا لتعمير بلاد أخرى ، وللاستيطان بها ، تكون مدبرة بقوانين وسياسات أخـرى ·

الرابعة والسبعون : على كل ملك من ملوك فرنسا أن يحلف عند تولية المملكة الفرنساوية ألا يحيد عن هذه الشرطة ·

ثم ان هذه الشرطة قد حصل فيها تغيير وتبديل من منذ الفتنة الأخيرة الحاصلة فى سنة احدى وثلاثين وثمانمائة وألف ، بتاريخ الميلاد ، فراجعها فى باب قيامة الفرنساوية وطلبهم للحرية والمساواة انتهى ، فاذا تأملت رأيت أغلب مافى هذه الشرطة نفيسـا ، وعلى كل حال فأمره نافذ عند الفرنساوية ، ولنذكر هنا بعض ملاحظات فنقول :

قوله فى المادة الأولى: سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة، معناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى اجراء الأحكام المذكورة فى القانون حتى ان الدعوى الشرعية

تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر الى هذه المادة الأولى فانها لها تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم ، وارضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظرا الى اجراء الأحكام .

ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية ، وهي من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية ، وتقدمهم في الآداب الحضرية .

وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف وذلك ، لأن معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوى في الأحكام والقوانين ، بحيث لا يجوز الحاكم على انسان ، بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة ، فهذه البلاد حرية بقول الشاعر :

وقـــد مـــلأ العـــدل أقطـــارها

وفيهـــا تـــوالى الصـــفا والـــوفا

وبالجملة اذا وجد العدل في قطر من الأقطار فهو نسبي اضافي لا عدل كلى حقيقى فانه لا وجود له الآن في بلدة من البلدان ، فهو كالايمان الكامل ، والحلال الصرف ، وأمثال ذلك ونظائره ، فلا معنى لحصر المستحيل في الغول والعنقاء والخل الوفي ، كما هو مذكور في قوله :

لما رأيت بني الزمان وما بهم   خل وفي للشـــدائد اصطفي
أيقنت أن المستحيل ثلاثة   الغول والنقاء والخل الوفي

ومع أن ذلك ممنوع في العنقاء ، فانها نـــوع من الطيور ، موجود الأفراد ، يذكر عند أرباب علم الحشائش . وذكر الثعلبي في قصص الأنبياء قضية العنقاء مع سيدنا سليمان في تكذيبهـــا بالقدر ، نعم لا وجود للعنقاء بالمعنى المشهور عند العامة من العرب

والافرنج : من أنها من أعلاها عقاب ومن أسلفها أسد ، وعلى كل حال فلها فى الجملة وجود ٠

وأما المادة الثانية فانها محض سياسية ، ويمكن أن يقال : ان (الفرد) ونحوها لو كانت مرتبة فى بلاد الاسلام كما هى في تلك البلاد لطابت النفس ، خصوصا اذا كانت الزكوات والفيء والغنيمة لاتفى بحاجة بيت المال ، أو كانت ممنوعة بالكلية وربما كان لها أصل فى الشريعة على بعض أقوال مذهب الامام الأعظم ٠ ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء : « الخراج عمود الملك » ٠

ومدة اقامتى بباريس لم أسمع أحدا يشكو من المكوس و (الفرد) والجبايات أبدا ، ولا يتأثرون ، بحيث انها تؤخذ بكيفية لاتضر المعطى ، وتنفع بيت ما لهم ، خصوصا وأصحاب الأموال فى أمان الظلم والرشوة ٠

وأما المادة الثالثة فلا ضرر فيها أبدا ، بل من مزاياها انها تحمل كل انسان على تعهد تعلمه ، حتى يقرب من منصب أعلى من منصبه ، وبهذا كثرت معارفهم ، ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة مثل أهل الصين والهند ، ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ، ويبقى للشخص دائما حرفة أبيه ٠

وقد ذكر بعض المؤرخين أن مصر في سالف الزمان كانت على هذا المنوال ، فان شريعة قدماء القبطة كانت تعين لكل انسان صنعته ، ثم يجعلونها متوارثة عنه لأولاده قيل سبب ذلك أن جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريفة ، فكانت هذه العادة من مقتضيات الأحوال ، لأنها تعين كثيرا على بلوغ درجة الكمال فى الصنائع ، لأن الابن يحسن عادة ما رأى أباه يفعله عدة مرات بحضرته ، ولا يكون له طمع في غيره ، فهذه العادة كانت تقطع عرق

الطمع ، وتجعل كل انســـان راضيا صنعته ، لايتمنى أعلى منها ، بل لايبحث الا عن اختراع أمور جديدة نافعة لحرفته توصــل الى كمالها انتهى .

ويرد عليه أنه ليس فى كل انسان قابلية لتعلم صنعة أبيه ، فقصره عليها ربما جعل الصغير خائبـــا فى هذه الصنعة ، والحال أنه لو اشتغل بغيرها لصلح حاله ، وبلغ آماله .

وأما المادة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فانها نافعة لأهل البلاد والغرباء . فلذلك كثر أهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء . وأما المادة الثامنة فانها تقوى كل انسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله ، مما لا يضر غيره ، فيعلم الانســـان سائر ما فى نفس صاحبه خصوصا الورقات اليوميـــة المســماة « بالجورنالات » و « الكازيطات » الأولى جمع (جرنال) والثانيــة جمع (كازيطة) فان الانسان يعرف منها ســـائر الأخبار المتجددة ، سواء كانت داخليـــة أو خارجية ، أى داخل المملكة أو خارجها ، وان كان قد يوجـــد فيهـــا من الكذب مالا يحصى ، الا أنهـــا قد تتضمن أخبارا تتشوق نفس الانســان الى العلم بها ، على أنها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق ، أو تنبيهات مفيـــدة أو نصائح نافعة ، سواء كانت صـــادرة من الجليـــل أو الحقير ، لأنه قد يخطر ببال الحقير مالا يخطر ببال العظيم ، كما قال بعضهم: لاتحتقر الرأى الجليل ، يأتيك به الرجل الحقير فان الدرة لاتستهان، لهوان غواصها ، وقال الشاعر :

لما سمعت به سمعت بواحد ورأيتـــه فاذا هو الثقلان
فوجدت كل الصيد في جوف الفرا ولقيت كل الناس فى انسان

ومن فوائدها : أن الانسان اذا فعل فعلا عظيما ، أو رديئا ، وكان من الأمور المهمة كتبه أهل (الجورنال) ليكون معلوما للخاص

والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب ، وردع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك اذا كان الانسان مظلوما من انسان ، كتب مظلمته في هذه الورقات ، فيطلع عليها الخاص والعام ، فيعرف قصة المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ، ولا تبديل ، وتصل الى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر ٠

وأما المادة التاسعة فانها عين العدل والانصاف ، وهي واجبة لضبط جور الأقوياء على الضعاف ٠ وتعقيبها بما فى العاشرة من باب اللياقة الظاهرة ، وفي المادة الخامسة عشرة نكتة لطيفة ، وهي : أن تدبير أمر المعاملات لثلاثة مراتب ، المرتبة الأولى : الملك مع وزرائه ،والثانية : مرتبة « البيرية » المحامية للملك ، والثالثة : مرتبة رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية والمحامون عنهم ، حتى لاتظلم من أحد ، وحيثما كانت رسل العمالات قائمة مقام الرعية ، ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها ٠ وعلى كل حال فهى مانعة للظلم عن نفسها بنفسها ، وهي آمنة منه بالكلية ، ولا يخفى عليك حكمة باقى المواد ٠

خلاصة حقوق الفرنساوية الآن بعد سنة ١٨٣١ من الميلاد وتصليح الشرطة

حقوق الفرنساوية الواجبة لهم والواجبة عليهم

(مضمون الشرطة بعد التغيير)

الفرنســـاوية مستوون فى الأحكام على اختلافهم فى العظم والمنصب والشرف والغنى ، فان هذه مزايا لا نفع لها الا فى الاجتماع الانسانى والتحضر فقط ، لا فى الشريعة فلذلك كان جميعهم يقبل فى المناصب العسكرية والبلدية ، كما أنه يعين الدولة من ماله على قدر حاله .

وقد ضمنت الشريعة لكل انسان التمتع بحريته الشخصية ، حتى لايمكن القبض على انسان الا فى الصــورة المذكورة فى كتب الأحكام ، ومن قبض على انسان فى صورة غير منصوصة فى الأحكام يعاقب عقوبة شديدة .

ومن الأشياء التى ترتبت على الحرية عند الفرنساوية أن كل انسان يتبع دينه الذى يختاره يكون تحت حماية الدولة ويعاقب من تعرض لعابد فى عبادته .

ولا يجوز وقف شىء على الكنائس أو اهداء شىء لها الا باذن صريح من الدولة .

وكل فرنساوى له أن يبدى رأيه فى مادة السياسات ، أو فى مادة الأديان ، بشرط أن لايخل بالانتظام المذكور فى كتب الأحكام .

كل الأملاك على الاطلاق حرم لاتهتك ، فلا يكره انسان أبدا على اعطاء ملكه الا لمصلحة عامة ، بشرط أخذه قبل التخلية قيمته ، والمحكمة هى التى تحكم بذلك .

كل انسان عليه أن يعين فى حفظ المملكة العسكرية بشخصه، بمعنى أنه كل سنة يجمع أولاد احدى وعشرين سنة لتضرب القرعة ، لأخذ العساكر السنوية منهم ، ومدة الخدمة العسكرية ثمان سنوات، وكل فرنساوى عمره ثمان عشرة سنة ، وله حقوقه البلدية يمكنه أن يتطوع ويدخل العسكرية .

ويعافى من العسكرية عدة أناس : الأول : من طوله دون متر وخمسة وسبعين (سنتيمترا) يعنى أربعة اقدام وعشرة برامق (١) : الثانى : أصحاب العلل : الثالث الابن أكبر الاخوة الأيتام من أبيهم وأمهم : الرابع . الابن البكرى او المنفرد أو ابن الابن الأكبر أو المنفرد عند فقده اذا كانت الام والجدة لازوج لهما أو كان أبوه أعمى أو سنه سبعين سنة : الخامس : البكرى أحد الأخوين اللذين وقعا فى قرعة لمة واحدة . السادس : الأخ الذى أخوه باق تحت البيرق أو مات فى الخدمة أو جرح فى الحرب ، ولو أراد انسان أن ينوب عنه غيره فان المنوب عنه يضمن النائب سنة من خوف الهرب ، الا اذا كان الهارب قبض عليه فى السنة أو مات تحت بيرق الفرنساوية ، وفى أحد وعشرين فى شهر (دقمبر) (٢) من كل سنة كل العساكر التى تمت خدمتهم يؤذن لهم بالعود الى محلهم .

ولما كان لايمكن لكل انسان أن يدخل بنفسه فى عمل الدولة ، وكلت الرعية بتمامها عنها فى ذلك أربعمائة وثلاثين وكيلا تبعثها

---

(١) أصابع .

(٢) هكذا فى المطبوعة ولعله : ديسمبر .

الى باريس فى المشورة : وهؤلاء الوكلاء تختارهم الرعية وتوكلهم بأن يمانعوا عن حقها ، ويصنعوا ما فيه مصلحة لها ، وذلك أن كل فرنساوى مستكمل للشروط التى منها أن يكون عمره خمسا وعشرين سنة ، له أن يكون ممن له مدخل فى انتخاب رسل عمالاته .

وكل فرنساوى له أن يكون رسولا اذا كان عمره ثلاثين سنة ، وكان موصوفا بالشروط المذكورة فى كتاب الأحكام .

وفى كل مأمورية مجمع اختبار وانتخاب ، ومجامع انتخاب للأقاليم الصغيرة : ومجامع المأموريات الكبيرة مؤلفـــة من المنتخبين الكبار ، وتعين ١٧٢ رسولا ، ومجامع انتخـــاب الاقاليم الصغيرة تعين ٢٥٨ رسولا ، ودفاتر أرباب الانتخاب تطبع وتكتب فى الطرق شهرا قبل فتح مجامع الانتخاب حتى انه يمكن لكل انسان أن يكتب اعلاما به ، وكل منتخب (بكسر الخاء) يكتب رأيه سرا فى ورقة ويعطيها للرئيس مطوية والرئيس يضعها فى اناء القرعة .

وديوان رسل العمالات يتجدد أهله بالكلية كل خمس سنوات، ولايمكن أخذ الفرد الا بخلاصة من مشورة الديوانين ، مقررة من طرف الملك ، ويمكن لأهل البلدان أن يراســـلوا أهل الديوانين بطرق (العرضحال) ليشتكوا من شىء ويعرضوا شيئا نافعا .

القضاة لاينعزلون فلا يحكم على انسان الا بقضاة محـــل استيطانه . والدعاوى تقام جهرا ، وذنوب الجنايات لا يحكم فيها الا بحضرة جماعة يسمون « الجوريين (١) » والعقوبة بالقبض على الأموال بطلت .

للملك أن يعفو عن المعاقب وأن يخفف العقاب الشديد ـ على

---

(١) يسمون المحلفين والكلمة فرنسية الأصل Jurés

الملك وورثته أن يحلفوا عند ارتفاء الكرسي بأن يعملوا بما في كتاب قوانين المملكة .

ثم انه يطول علينا ذكر الأحكام الشرعية أو القانونيـــة المنصوبة عند الفرنساوية ، فلنقل : ان أحكامهـم القانونية ليست مستنبطة من الكتب (ص ٨٥) السماوية ، وانما هي مأخوذة من قوانين أخر غالبها سياسي ، وهي مخالفة بالكلية للشرائع وليست قارة الفروع ، ويقال لها : الحقوق الفرنســـاوية ، أي حقوق الفرنساوية بعضـــهم على بعض ، وذلك لأن الحقوق عند الافرنج مختلفة ، ثم ان بباريس عدة محاكم وفي كل محكمة قاض كبير كأنه قاضي القضاة وحوله رؤساء وأرباب مشورة ، ووكلاء الخصوم ، ومحامون للخصوم ونواب عن المحامين ، وموقع الوقائع .

(شـــعر)

مـــن ادعى أن له حاجـــة تخـــرجه عن منهج الشرع
فلا تكونن له صاحبـــا فانه ضر بـــلا نفـــع

الفصل الرابع

[في عادة سكنى أهل باريس وما يتبع ذلك]

من المعلوم أن البلدة أو المدينة تبلغ من الحضـــــارة على قدر معرفتها ، وبعدها عن حالة الخشونة والتوحش ، والبلاد الافرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التى لاينكر انســـان أنها تجلب الأنس وتزين العمران . وقد تقرر أن الملة الفرنساوية ممتازة بين الأمم الافرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف ، فهى أعظـــم أدبا وعمرانا والبنادر أولى فى العمارات عادة من القرى والضـــياع . والمدن العظمى أولى من سائر البنادر وتحت المملكة أولى من سائر ما عداها من مدن تلك المملكة فحينئذ لا عجب أن قيل : ان باريس التى هى قاعدة ملك الفرنسيس من أعظم بـلاد الافرنج بنــــاء ، وعمارة ، وان كانت عماراتها غير جيدة المادة فهى جيدة الهندســة والصناعة ، على أنه ربما يقال أيضا : ان مادتها جيدة الا أنهـــا ناقصة ، لعدم كثرة حجر الرخام فيها ، ولخلوها عن بعض أشياء أخر ــ كيف لا ؟ وأساس حيطانها من أحجـــار النحاتة ، وكذلك الحيطان الخارجية ، وأما الداخلية فانها تتخذ من الخشب الجيد فى الغالب ، وأما عواميدها فهى غالبا من النحاس ، فقل أن كانت من الرخام ، كما أن تبليط الأرض يتخذ من حجر البلاط ، وقد يكون من الرخام الأسود مع البلاط ، وذلك أن الطرق دائما مبلطة بحجر البلاط المربع ، والحيشان مبلطة بالبلاط المذكور ، والقيعان بالآجر

أو بالخشب ، أو بالمرمر الأسود مع البلاط المشغول ، وجودة الحجر أو الخشب تختلف باختلاف يسار الانسان ٠

ثم ان حيطان الغرفات والأرض من خشب كما تقدم ، وهم يطلونه يطونه بالطلاء ، ثم يسترون الحيطان بورق منقوش نقشا نظيفا ، فهو أحسن من عادة تبييض الحيطان بالجير ، فان الورق لايعود منه شيء على من مس الجدار ، بخلاف الجير ، بل وهو أهون مصرفا وأعظم منظرا وأسهل فعلا خصوصا فى (أوضاتهم) المزينة بأنواع من الأمتعة التى لايمكن الافصاح عنها ٠ غاية ما يقال : ان الفرنساوية يحاولون اضعاف نور (الأوض) بوضع الستائر الملونة، خصوصا الخضراء ، وأرض أوضـــهم مبلطة بخشب أو بنوع من القرميـد الأحمر ، ويحكون أرض (الأوضـــة) كل يـوم بالشمع الأصفر ، المسمى عندهم شمع الحك ، وعندهم حكاكون بالأجـــرة معدون لذلك بالخصوص ، وتحت أسرتهم ، المكسوة بالمخيشـــات وبالمشجرات وغيرها ، سجادات عظيمة يطؤونها بالنعال ، وفى كل (أوضة) مدخنة للنار ، وهى على شكل صفة القلل مرخمة بجيد الرخام ، وفوقها ساعة « بشتختة » (١) وحول الساعة من الجهتين آنية من تقليد الرخام الأبيض ، أو من البلور ، فيها أزهار أو تقليد ازهار ، وحول هذا من الجهتين القناديل الافرنجية الدولابية التى لايدرك صورتها حقيقية الا من رآها موقودة،وفى غالب (أوضهم) آلات الموسيقى المسماة « البيانو » (بكسر الباء وضم النـــون) ، فاذا كانت (الأوضة) أوضة شغل وقراءة ففيها طاولة مشتملة على آلات الكتابة وغيرها ، مثل سكاكين قطع الورق المصنوعة من العاج أو البقس (٢) أو غيرهما ٠ وأغلب (الأوض) مشحونة بالصور ،

---

(١) نوع من المناضد الصغيرة ذات الأدراج ٠

(٢) اسم لنوع من الأشجار ٠

خصوصا صور الأقارب • وفي (أوضة) الشغل أيضا قد توجد صور « عجيبة » وأشـــياء من غرائب ما كان عنـــد القدماء على اختلافهم •

وربما رأيت على طاولة الشغل أوراق الوقائع على اختـلاف أجناسها ، وربما رأيت كذلك في (أوض) الاكابر (النجفات) العظيمة التي توقد بشموع العسل ، وربمـــا رأيت أيضـــا في (أوضهم) في يوم تلقى الناس طـــاولة وعليهـــا جميع الكتب المستجدة والوقائع وغيرها لتسلية من أراد من الضيوف أن يسرح ناظره ، وينزه خاطره في قراءة هذه الأشياء ، وهذا يدل على كثرة اهتمام الفرنساوية بقراءة الكتب ، فهي أنسهم •

ومن التوقيعات اللطيفة : الكتاب وعاء ملء علمـــا ، وظرف حشي ظرفا ، ومن لك بروضة تقلب في حجر وبستان يحمل في كم ، وما أحسن قول بعضهم شعرا :

دفتري مؤنسي وفكري سميري ويدي خادمي ، وحلمي ضجيعي
ولساني سيفي، وبطشي قريضي ودواتي عيشي ، ودرجي ربيعي

وقال آخر :

لنا جلســـاء ما يمل حديثهم ألباء مأمونون غيبا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم مامضى وعقلا وتأديبـــا ورأيا مسددا
فان قلت أموات فما أنت كاذب وان قلت أحيـــاء فلست مفندا

ومن كلام بعضهم : نعم المحدث الدفتر • ومن كلام بعض الظرفاء : ما رأيت باكيا أحسن تبسمـــا من القلم • ثم ان جميع هذه التحف يكمل الأنس بها بحضور سيدة البيت أي زوجة صاحبه التي تحيي الضيوف أصـالة ، وزوجها يحييهم بالتبعية ، فأين هذه (الأوض) بما احتوت عليه من اللطائف من (أوضنا) التي

يحيا فيها الانسان باعطاء شبق (١) الدخان من يد خادم في الغالب قبيح اللون ٠

وأما السقوف فانها من الخشب النفيس ، ثم ان البيت في العادة مصنوع من أربع طبقات ، بعضها فوق بعض ما عدا البناء الأرضي فلا يحسب دورا وقد يصل الى سبعة أدوار ، وغيرها تحت الأرض من المخادع التي تستعمل أيضا لربط الخيل ، أو المطبخ وذخائر البيت ، وخصوصا النبيذ والخشب للوقود ٠

ثم ان البيت عندهم كما في بيوت القاهرة ، مشتمل على عدة مساكن مستقلة ففي كل دور من أدوار البيت جملة مساكن ، وكل مسكن متنافذ (الأوضات) ٠ وقد جرت عادتهم بتقسيم البيوت الى ثلاث مراتب ٠ المرتبة الأولى : بيت عادى ٠ والثانية : بيت لأحد من الكبار ٠ والثالثة : بيوت الملك وأقاربه ودواوين المشورة ونحوها ، فالأول يسمى : بيتا ، والثاني يسمى : دارا ، والثالث يسمى : قصرا أو (سراية) ٠

ويمكن أيضا تقسيم البيوت من حيثية أخرى الى ثلاث مراتب أيضا : المرتبة الأولى : البيوت التي لها حاجب ، ولها باب كبير يسع دخول العربة منه ، والثانية : البيوت التي داخلها دهاليز ولها بواب ، ولايمكن أن تدخل العربة من بابها ، والثالثة البيوت التي لا بواب لها ، أي لا مكان للبواب فيها يسكن فيه ، ووظيفة البواب في باريس أن ينتظر الساكن الى نصف الليل ، فاذا أراد الساكن أن يسهر في المدينة زيادة عن الليل ، فعليه أن ينبه البواب لينتظره ، ولكن لابد أن يعطيه بعض شيء ، وليس على الحارات بواب أصلا ، وليس لها أبواب كما في مصر ٠

---

(١) الشبق : أنبوبة مجوفة من عود خشبي يثبت في أحد طرفيها الحجر الذي يوضع فيه التبغ وكانت تستعمل للتدخين في ذلك العصر ٠

ثم ان العقارات بباريس غالية الثمن والكراء ، حتى ان الدار العظيمة قد يبلغ ثمنها مليون فرنك ، يعني نحو ثلاثة ملايين قروشا مصرية ، ثم ان كراء المساكن في باريس قد يكون لمجرد المسكن . وقد يستأجرها الانسان بفراشها العظيم وجميع أثاثها وآلاتها .

وآلات البيت عند الفرنسيس هي آلات الطبـــاخة والمأكل بأجمعها ، بطقمها المشتمل على الفضيات ونحوها ، وآلة الفراش للنوم ، وهو في الغالب عدة طراحات احـداها من الريش ، وملاية فرشه تتغير كل شهر ، وحرامات الغطاء ، ثم آلات التجمل ، وتلقى الـــزوار ، وهي الـــكراسي المكســـوة بالحـــرير ونحـــوه والشزلانات (١) المكسوة كذلك ، والكراسي العادية والآلات العظيمة المنظر ، كالساعات الكبيرة المسماة عندهم : « بنـــدول » وكأواني الأزهار العظيمة ، وغيرها من أواني القهوة المموهة بالذهب وكالنجفة المعلقة التي تتقد بالشموع المكررة ، وكخزانة الكتب التي لها باب من (القزاز) يظهر منه ما فيها من الكتب جيدة التجليد ، وكل انسان له خزنة كتب سواء الغني أو الفقير حيث ان سائر العامة يكتبون ويقرءون .

والغالب أن الرجل ينام في (أوضة) غير التي تنـــام فيها زوجته ، اذا تقادم الزواج .

ومن العوائد التي لا بأس بها أن قصر ملك فرنسا وقصور أقاربه تنفتح حين خروج السلطان وأقاربه كل سنة الى الاقامة في الخلاء مدة أشهر ، فيدخل سائر الناس للفـــرجة على بيت الملك وأقاربه ، فيرون أثاث البيت وسائر الأشياء الغريبة ، ولكن لايدخل أحد الا بورقة مطبوعة مكتوب فيها الاذن بدخول شخص أو شخصين أو أكثر ، وهذه الورقة توجد عند كثير من الناس فاذا طلبها الانسان

(١) التي يسمى واحدها بالشازلون . أي الكراسي الطوال .

ممن يعرفه أعطاها له ، فترى فى البيت ازدحاما عظيما للفرجة على جميع ما فى حريم الملك وأقاربه ، وقد دخلت ذلك عدة مرات فرأينه من الأمور العجيبة التى ينبغى التفرج عليها ، وفيه كثير من الصور التى لاتمتاز عن الناس الا بعدم النطق ، وفيه مصور كثير من ملوك فرنسا وغيرهم ، وكل أقارب السلطنة وكل الأشياء الغريبه ، وأغلب الأشياء الموجودة فى حريم السلطنة مستحسنة من جملة جودة صناعتها لانفاستها بالمادة مثلا سائر الفراش كالكراسى والأسرة حتى كراسى المملكة مشغولة شغلا عظيما بالقصب المخيش، ومطلية بالذهب الا أنه لايوجد بها كثير من الأحجار الكريمة كما يوجد ببلادنا ببيوت الأمراء الكبار بكثرة ، فمبنى أمور الفرنساوية فى جميع أمورهم على التجمل لا على الزينة واظهار الغنى والتفاخر ·

ثم سائر الأغنياء « بباريس » يسكنون فى الشتاء فى نفس المدينة وقد أسلفنا فى ذكر طبيعة اقليم « باريس » أن كل بيت به مداخن تتقد فيها النيران فى القيعان (والأود) وأما فى مدة الحر ، فمن له يسار سكن فى الخلاء ، لأن القصور بالخلاء أسلم هواء من داخل المدينة ، ومن الناس من يسافر فى بعض بلاد فرنسا أو ما جاورها من البلاد ، ليستنشق رائحة البلاد الغريبة ، ويطلع على البلاد ، ويعرف عوائد أهلها · خصوصا فى مدة من السنة تسمى عندهم مدة التعطيل ، أو مدة الفراغ ، يعنى البطالة ، حتى النساء فانهن يسافرن وحدهن ، أو مع رجل يتفق معهن على السفر ، وينفقن عليه مدة سفره معهن ، لأن النساء أيضا متولعات بحب المعارف والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها ، أو ليس أنه قد يأتى منهن من بلاد الافرنج الى مصر ، ليرى غرائبها من الأهرام والبرابى (١) وغيرها ، فهن كالرجال فى جميع الأمور · نعم قد

---

(١) المسلات ·

يوجد منهن بعض نساء غنيات مستورات الحال يمكن من أنفسهن الأجنبي ، وهن غير متزوجات فيشعرون بالحمل ، ويخشين الفضيحة بين الناس ، فيظهرن السفر لمجرد السياحة أو لمقصد آخر ليلدن ، ويضعن المولود عند مرضع بأجرة خاصة ليتربى فى البلاد الغريبة ، ومع هذا الأمر فليس بشائع ، وبالجملة « ما كل بارقة تجـــود بمائها » ففى نساء الفرنساوية ذوات العرض ، ومنهن من هى بضد ذلك ، وهو الأغلب لاستيلاء فن العشق فى فرنسا على قلوب غالب الناس ذكورا واناثا وعشقهم معلل ، لأنهم لايصدقون بأنه يكون لغير ذلك الا أنه قد يقع بين الشاب والشابة فيعقبه الزواج •

ومما يمدح به الفرنساوية نظافة بيوتهن من سائر الأوساخ ، وان كانت بالنسبة لبيوت أهـل الفلمنـك كلا شيء فان أهل الفلمنك أشـد جميـع الأمم نظافـة ظاهريـة كما أن أهـل مصر فى قـديم الزمان كانوا أيضا أعظم أهل الدنيا نظافة ، ولم يقلدهم ذراريهم وهم القبطة فى ذلك •

وكما أن باريس نظيفة فهى خلية أيضا من السميات ، بل ومن الحشرات فلا يسمع بأن انسانا فيها لدغته عقـــرب أبدا ، وتعهد الفرنساوية تنظيف بيوتهم وملابسهم أمر عجيب ، وبيوتهم دائما مفرحة بسبب كثرة شبابيكها الموضوعة بالهندسة وضـــعا عظيما يجلب النور والهواء داخل البيوت وخارجها وظرفات (٢) الشبابيك دائما من (القزاز) حتى اذا أغلقت فان النور لايحجب أصـــلا ، وفوقها دائما الستائر : للغنى والفقير ، كما أن ستائر الفرش التى هى نوع من الناموسية غالبة لسائر أهل باريس •

---

(٢) يريد ما يسمى الضرفة : المصراع •

الفصل الخامس

[في أغذية أهل باريس وفي عاداتهم في المآكل والمشارب]

اعلم أن قوت أهل المدينة هو الحنطة ، وهي في الغالب صغيرة الحبوب ، الا اذا كانت منقولة من البلاد الغريبة فيطحنونها في طواحين الهواء والماء ، ويخبزونها عند الفران فيبـاع الخبز في دكانه ، وسائر الناس لها مرتب يومي تشتريه من الخباز ، وعلة ذلك توفير الزمان والاقتصاد فيه لأن سـائر الناس مشغولون في أشغال خاصة ، فصناعة العيش في البيوت تشغلهم •

ثم ان المحتسب يأمر الخبازين أن يكون عندهم كل يوم من العيش ما يكفي المدينة وفي الحقيقة لايمكن فقد العيش أبدا بمدينة باريس بل ولا فقد غيره من أمور الأغذية •

وأدم أهل هذه المدينة اللحوم والبقول والخضراوات والألبان والبيض وغيرها ، والغالب تعدد الأطعمة ولو عند الفقراء • ثم ان المذابح عندهم تكون بأطراف المدينة لاداخلها ، وحكمة ذلك أمران دفع الوخم ، ودفع أضرار البهائم اذا انفلتت • وكيفية الذبح تختلف عندهم ، فأما ذبح الضأن فانه أهون من ذبح غيره ، فانهم ينفذون السكين وراء زوره يعني بين زوره ورقبته ، ثم يقطعونه بعكس ما نفعل • وأما ذبح العجول فانه مثله • وأما الثيران فيضربونها بمقامع من حديد في وسط رأسها فيدوخ من عظـم الخبط ، ثم

يكررون ذلك عدة مرات ، فيقطع الثور النفس مع بقاء الحركة ، ثم يذبحونـه كما تقـدم من ذبـح الضـأن ، ولقـد بعثت خادمـا لى مصريا الى المذبح ليذبح ما اشترى منه كما هو عادتى ، فلما رأى معاملة الثيران بمثل ذلك الأمر البشع جاء يستجير ويحمد الله تعالى حيث لم يجعله ثورا فى بـلاد الافرنج ، والا لذاق العذاب كالثيران التى رآها ! والعجـول والثيران تكون من البقر اذ لا وجـود للجواميس بهذه البلاد الا للفرجة ٠

وأما ذبح الطيور فانه على أنواع مختلفة : فمنهم من يصنع فيها كالغنم ، ومنهم من يقطع لسان الطائر ، ومنهم من يخنقه بفتلة خيط ، ومنهم من يذبحه من قفاه الى غير ذلك ٠

وأما الأرانب فانها لاتذبح أبدا ، بل تخنق ليحقن فيها دمها ٠

وأما ذبح الخنازير فلم أره لأن له مذبحا مخصوصا ، والظاهر أنهم يصنعون بها كالعجول ، ثم من الأمور التى بها راحة للنـاس بمدينة « باريس » محـال الأكل المسماة « الرسـطراطور » أى « اللوكنجة » (١) ، فانها مستوفية لما يجده الانسان فى بيته بل أعظم ، وقد يجد الانسان ما يطلبه حاضرا ، وفى هذه «الرسطراطور» غرف لطيفة متعددة مستوفية لآلات البيوت ، وربما يوجد فيها محال للنوم مفروشة بأعظم الفراش ، وكما يوجد فى « الرسطراطور » أنواع المآكل والمشارب يوجد فيها أنواع الفواكه والنقل ٠

وعادة الفرنسـاوية الأكل فى طبـاق كالطباق العجميـة أو الصينية ، لا فى آنية النحاس أبدا ، ويضعون على (السفرة) دائما قدام كل انسان شوكة وسكينا وملعقة ، والشوكة والملعقة من

---

(١) يريد (اللوكاندة) : الفندق ٠

الفضة ، ويرون أن من النظافة (أو الشلبنـــة) (٢) أن لايمس الانسان الشيء بيده ، وكل انسان له طبق قدامه ، بل وكل طعام له طبق ، وقدام الانسان قدح فيصب فيه ما يشربه من (قزازة) عظيمة موضوعة على (السفرة) ثم يشرب فلا يتعدى أحد على قدح الآخر .

وأوانى الشرب دائما من البلور والزجـــاج ، وعلى السفرة عدة أوان صغيرة من الزجاج أحدها فيه ملح ، والآخر فيه فلفل ، وفى الثالث خردل الى آخره .

وبالجملة فآداب سفرتهم وترتيباتها عظيمة جدا ، وابتداء المائدة عندهم (الشوربة) واختتامها الحلويات والفواكه ، والغالب فى الشراب عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء ، وفى الغـــالب ، خصوصا لأكابر الناس ، أن يشرب من النبيذ قدر لايحصـــل به سكر أصلا فان السكر عندهم من العيوب والرذائل ، وبعد تمـام الطعام ربما شربوا شيئا يسيرا من العرقى ، ثم انهـــم مع شربهم من هذه الخمور لا يتغزلون بهـــا كثيرا فى أشـــعارهم ، وليس لهـم أســماء كثيرة تـدل على الخمرة كما عند العرب أصـــلا ، فهم يتلذذون بالذات والصفات ، ولا يتخيلون فى ذلك معانى ولا تشبيهات ولا مبالغات ، نعم عندهم كتب مخصوصة متعلقة بالسكارى ، وهى هزليات فى مدح الخمرة ، لاتدخل فى الأدبيات الصحيحة فى شيء أصـــلا .

ويكثر فى « باريس » شرب الشاى عقب الطعام ، لأنهم يقولون انه هاضم للطعام ، ومنهم من يشرب القهوة مع السكر ، وفى عوائد أغلب الناس أن يفتتو الخبز فى القهوة المخلوطة باللبن ، ويتعاطوها فى الصباح ـ واذا أردت بعض شيء يتعلق بالمأكل والمشرب فراجع فصل المآكل والمشارب فى ترجمتنا « كتاب قلائد المفاخر » ـ .

---

(٢) التظرف .

ثم ان الغالب أن ما يقطعه أهل هذه المدينة من المآكل والمشارب كل سنة يكون هذا تقريبـــه ، فمن الخبز ما تزيـد قيمتـــه على خمسـة وثلاثين مليونا من الفرنكات ، وتأكل من اللحـوم نحــو واحد وثمانين ألف ثور ، وأربعمائة وثلاثين ثورا ، ومن البقر نحو ثلاثة عشرة ألف بقرة ، ومن الضأن أربعمائة وسبعين ألف كبش ، ومن الخنازير الوحشية والأهلية نحو مائة ألف خنزير ، ومن السمن بنحــو عشرة ملايين مـن الفرنـكات ، ومـن البيض بنحـــو خمسة آلاف فرنك ٠

ومن غرائب الأشياء أن فيها التحيل على عدم عفونة الأشـياء التى من شأنها العفونة ، فمن ذلك ادخار اللبن بكيفية خاصـــة خمس سنين من غير تغير ، وادخار اللحـم طريا عشر ســنوات ، وادخار الفواكه لوجودها فى غير أوانها ٠ ومع كثرة تفننهـــم فى الأطعمة والفطورات ونحوها ، فطعامهم على الاطلاق عديم اللذة ، ولا حلاوة صادقة فى فواكه هذه المدينة الا فى الخوخ ٠

وأما خماراتها فانها لاتحصى ، فما من حارة الا وهى مشحونة بهذه الخمارات ، ولا يجتمع فيها الا اراذل الناس وحرافيشهم مع نسائهم ، ويكثرون الصياح وهم خارجون منها بقولهم ما معناه : الشراب ، الشراب ! ومع ذلك فلا يقع منهـــم فى ســــكرهم أضرار أصلا ٠

وقد اتفق لى ذات يوم وأنا مار فى طريق فى « باريس » أن سكران صاح قائلا : ياتركى ، ياتركى ، وقبض بثيابى ، وكنت قريبا من دكان يباع فيه السكر ونحوه ، فدخلت معه ، وأجلسته على كرسى ، وقلت لرب الحانوت على سـبيل المـزح هـل تريد أن

تعطيني بثمن هذا الرجل سكرا أو نقلا ؟ فقال صاحب الحانوت : ليس هنا مثل بلادكم ، يجوز التصرف في النوع الانساني ؟ فما كان جوابي له الا أنني قلت : ان هذا الشخص السكران ليس في هذا الحال من قبيل الآدميين • وهذا كله والرجل جالس على الكرسي ، ولا يشعر بشيء ، ثم تركته بهذا المحل وذهبت •

الفصل السادس

[في ملابس الفرنسيس]

من المعروف عندنا أن غطاء رأس الافرنج (البرنيطة) ، وأن نعالهم فى الأكثر الصرم السوداء ، و (التاسومات) : وأن لباسهم فى الغالب هو الجوخ الأسود ، وأما الفرنساوية فانها فى الغالب أيضا على هذا الملبس الا أنهم لا يلزمون ملبسا خاصــــا ، بل كل انسان يلبس باختياره ما تأذن له العادة يلبسه ، والغالب أن لبسهم ليس له زينة ، وانما هو فى غاية النظافة • ومن العوائد العظيمة : انتشار لبس القمصان والألبسة والصديريات تحت ملابسهم ، فان الموسر يغير فى الأســـبوع عدة مرات ، وبهذا يستعينون على قطع عرق (الواغش) (١) فلذلك كان لا أثر للقمل ونحوه الا عند من اشتد به الفقر •

وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة بها نوع من الخلاعة ، خصوصا اذا تزين بأغلى ما عليهن ، ولكن ليس لهن كثير من الحلى فان حليهن هو الحلق المذهب فى آذانهن ، ونوع من الأســـاور الذهب يلبسنه فى أيديهن خــــارج الأكمـــام ، وعقد خفيف فى أجيادهن ، وأما الخلاخل فلا يعرفنها أبدا ، ولبسهن فى العــــادة الأقمشة الرقيقة من الحرير أو (الشيت) أو (البفت) الخفيف ،

---

(١) يريد : الحشرات •

ولهن في البرد شريط فروة فيضعنه على رقابهن ، ويرخين طرفيه كالمآزر ، حتى يصل بطرفيه الى قرب القدمين ٠

ومن عوائدهن أن يحتزمن بحزام رفيع فوق أثوابهن ، حتى يظهر الخصر نحيفا ويبرز الردف كثيفا ٠ ومما أنشده الحاجرى في ديوانه ، وان كان فيه خروج قوله :

ومزنر ياليتني أستاذه كيما أفوز بضمة من خصره
القس يسقيه شبيهة خده والمسلمون بأسرهم في أسره
فوحقه لولا رشاقة قده مارق اسلامي لشدة كفره

ومن العجائب أنه يمكن الانسان أن يضع في الخصروقت الحزام يديه فتري لدقته ٠

ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيبا من صفيح من البطن الى آخر الصدر ، حتى يكون قوامهن دائما معتدلا لا اعوجاج به، ولهن كثير من الحيل ٠

ومن خصالهن التي لايمكن للانسان أن لايستحسنها منهن عدم ارخائهن الشعور ، كعادة نساء العرب ، فان الفرنسيس يجمعن الشعور في وسط رؤوسهن ، ويضعن فيه دائما مشطا ونحوه ٠ ومن عوائدهن في أيام الحر كشف الأشياء الظاهرية من البدن ، فيكشفن من الرأس الى ما فوق الثدى ، حتى انه يمكن أن يظهر ظهرهن ، وفي ليالي الرقص يخلعن عن أذرعتهن ٠ وبالجملة فلا يعد ذلك من الأمور المخلة عند أهل هذه البلاد ، ولكن لايمكن لهن أبدا كشف شيء من الرجلين ، بل هن دائما لابسات للشرابات ، الساترة للساقين ، خصوصا في الخروج الى الطرق ، وفي الحقيقة سيقانهن غير عظيمة أصلا ، فلا يصلح لهن قول الشاعر :

لم أنسه اذ قام يكشف عامدا عن ساقه كاللؤلؤ البراق
لاتعجبوا ان قام فيه قيامتي ان القيامة يوم كشف الساق

وملابس الحزن عند الفرنسيس هي علامة حزن تلبس مدة معلومة ، ولها محل معلوم فالرجل يضع علامة الحزن فى (برنيطته) مدة معلومة ، والمرأة فى ثيابها والولد على فقد أبيه أو أمه يلبس علامة الحزن ستة أشـــهر وعلى فقد الجدة أربعـــة أشهر ونصفا والزوجة على فقد الزوج سنة وستة أسابيع ، وعلى فقـــد الزوجة ستة أشهر ، وعلى فقد الأخ أو الأخت شهرين ، وعلى فقد الخال ، والخالة ، والعم ، والعمة ثلاثة أسابيع ، وعلى فقـــد أولاد الأعمام والعمات والأخوال والخالات أسبوعين ٠

ثم ان ما يباع في باريس من الجوخ كل سنة بنحو مليون من الفرنكات تقريبا ، ومن الحريـــر بثلاثة ملايين من الفرنكات ، ومن الفراوى بمليون من الفرنكات ، ولعـــل السبب فى ذلك هو أن الفراوى تشترى من خصوص باريس ، لأهل باريس ٠

ومن المتداول عند الفرنساوية استعمال الشعور العارية لنحو الأقرع وردىء الشعر ، بل قد يستعملونهـــا فى اللحى والشارب للتقليد ، وقد شاعت عندهم تلك العادة من زمن « لويز الرابع عشر » ملك فرانسا ، حيث ان هذا الملك كان يلبســـها ، ولا يخلعهـــا من رأســـه أصـــلا الا عنـــد النوم ، ولازالت الى الآن مستعملة ، لكن للأقرع أو ردىء الشعر ، ومن الغريب أنها تستعمل الآن فى مصر بين نساء القاهرة ٠

الفصل السابع

[فى منتزهات مدينة باريس]

اعلم أن هؤلاء الخلق حيث انهم بعد أشغالهم المعتادة المعاشية لا شغل لهم بأمور الطاعات ، فانهم يقضون حياتهم فى الأمور الدنيوية ، واللهو ، واللعب ، ويتفننون فى ذلك تفننا عجيبا ٠

فمن مجالس الملاهى عندهم محال تسمى « التياتر » (١) (بكسر التاء المشددة ، وسكون التاء الثانية) ، « والسبكتاكل »(٢) وهى يلعب فيها تقليد سائر ما وقع ، وفى الحقيقة أن هذه الألعاب هى جد فى صورة هزل ، فان الانسان يأخذ منها عبرا عجيبة ، وذلك لأنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة ، ومدح الأولى ، وذم الثانية ، حتى ان الفرنساوية يقولون : انها تؤدب أخلاق الانسان وتهذبها ، فهى وان كانت مشتملة على المضحكات ، فكم فيها من المبكيات ٠ ومن المكتوب على الستارة التى ترخى بعد فراغ اللعب باللغة اللاطينية ما معناه باللغة العربية : « قد تصلح العوائد باللعب » ٠

وصورة هذه « التياترات » أنها بيوت عظيمة لها قبة عظيمة ، وفيها عدة أدوار كل دور له (أود) موضوعة حول القبة من داخله ،

---

(١) Le Théâtre.

(٢) Le spectacle

وفى بجانب من البيت مقعد متسع يطل عليه من سائر هذه (الأود) بحيث أن سائر ما يقع فيه يراه من هو فى داخـــل البيت ، وهو منور (بالنجفات) العظيمة ، وتحت ذلك المقعد محل للآلاتية ، وذلك المقعد يتصل بأروقة فيها سائر آلات اللعب ، وسائر ما يصنع من الأشياء التى تظهر ، وسائر النساء والرجال المعدة للعب ، ثم انهم يصنعون ذلك المقعد كما تقتضيه اللعبة ، فاذا أرادوا تقليد سلطان مثلا فى سائر ما وقع منه ، وضعوا ذلك المقعد على شكل (سراية) وصوروا ذاته ، وأنشدوا أشعاره ، وهلم جرا ومدة تجهيز المقعد يرخون الستارة لتمنع الحاضرين من النظر ، ثم يرفعونها ويبتدئون باللعب ، ثم ان النســـاء اللاعبـــات ، والرجال يشبهون العوالم فى مصر ٠

واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضـــل عظيم ، وفصاحة ، وربمـا كان لهؤلاء النـاس كثير من التآليف الأدبيـة والأشعار ، ولو سمعت ما يحفظـه اللاعب من الأشعار وما يبديـه من التـوريات فى اللعب ، وما يجـاوب بـه من التنكيت والتبكيت لتعجبت غاية العجب ٠

ومن العجائب أنهم فى اللعب يقولون مسائل من العلوم الغريبة والمسائل المشكلة ويتعمقون فى ذلك وقت اللعب ، حتى يظن أنهم من العلماء ، بل الأولاد الصغار التى تلعب ، تذكر شواهد عظيمة من علم الطبيعيـــات ونحـــوها ، ثم انهـــم يبتدئون اللعب بآلات الموسيقى (١) ، ثم يلعبون ما يريدون لعبه ، واللعبة التى تظهر تكتب فى ورقة وتلصق فى حيطان المدينة ، وتكتب فى التذاكر اليومية ليعرفها الخاص والعام وفى الليلة يلعبون اللعبات ، وبعد فراغ كل

---

(١) فى المطبوعة رسمت « الموسيقى » هكذا كلما ذكرت فى الكتاب ٠

لعبة ترخى الستارة ، فاذا أرادوا مثلا لعب شاه العجم البسوا لاعبا لبس ملك العجم ، وأحضروه واجلسوه على كرسى ، وهكذا •

وهذه (السبكتاكلات) يصورون فيها سائر ما يوجد ، حتى انهم قد يصورون فرق البحر لموسى عليه السلام ، فيصورون البحر ويجعلونه يتماوج حتى يشبه البحر شبها كليا ، وقد رأيت مرة فى الليل أنهم ختموا (التياتر) بتصوير شمس وتسييرها ، وتنوير (التياتر) بها حتى غلب نور هذه الشمس على نور النجف ، حتى كأن الناس فى الصباح • ولهم أشياء أغـرب من هذا ، وبالجملة (فالتياتر) عندهم كالمدرسة العامة ، يتعلم فيها العالم والجاهل •

وأعظم (السبكتاكلات) فى مدينة باريس المسماة « الأوبرة » (بضم الهمزة وتشديد الباء المكسورة ، وفتح الراء) وفيها أعظم (الآلاتية) وأهل الرقص . وفيها الغناء على الآلات والرقص باشارات كاشارات الأخرس ، تدل على أمور عجيبة ، ومنها (تياتر) تسمى : كوميك » فيغنى فيها الأشعار المفرحة •

وبها (تياتر) تسمى : « التياتر الطليانية » وبهـــا أعظم (الآلاتية) ، وفيها تنشد الأشعار المنظومة باللغة الطليانية ، وهذه كلها من (السبكتاكلات) الكبيرة • وفى باريس « سبكتاكلات » أخرى وهى مثل تلك الا أنها صغيرة •

وهناك أيضا (سبكتاكلات) يلعبون فيهـــا الخيل والفيلة ونحوها ، ومنها (التياتر) المســماة « تياتــر فرنكونى » (بكسر الفاء وفتح الراء وسكون النون وضم الكاف وكسر النون الثانية) ، وفيها فيل مشهور بالألعاب الغريبة معلم تعليما عجيبا •

وكما أن أكبر (التياترات) « الأوبرة » فأصغرها (تياتر) تسمى : تياتر « الكمت » وهى معدة لنزاهة الصغار كالحاوى فى

مصر » والكمت » اســـم معلم هذه السبكتاكل (١) وكل اللاعبين (ص ٩٧) واللاعبات صغار السن ، وهذه (التياتر) يوجد بها كثير من (الشعبيثيات) و (السيم) (٢) ونحوهـا ، ولو لم تشــتمل (التياتر) في فرانسا على كثير من النزعات الشيطانية لكانت تعد من الفضائل العظيمة الفائدة ، فانظـــر الى اللاعبين بهـا فانهـــم يحترزون ما أمكن عن الأمور التى يفتتن بها المخلة بالحياء ، ففرق بعيد بينهم وبين عوالم مصر ، وأهل السماع ونحوهم ·

ولا أعرف اسما عربيا يليق بمعنى (السبكتاكل) أو (التياتر) غير أن لفظ (سبكتاكل) معناه منظر أو منتزه أو نحو ذلك · ولفظ (تياتر) معناه الأصلى كذلك ، ثم سمى بها اللعب ومحله ، ويقرب أن يكون نظيرها أهل اللعب المسمى خياليا ، بل الخيالى نوع منها ·

وتشتهر عند الترك باسم (كمديه) وهذا الاسم قاصر الا أن يتوسع فيه ، ولا مانع أن تترجم لفظه (تياتر) أو (سبكتاكل) بلفظة خيالى ، ويتوسع في معنى هذه الكلمة ، ويقرب من تصوير (السبكتاكل) أو هو منها مواضع ، يصور فيها للانســـان منظر بلد أو أراض أو نحو ذلك ، فمن ذلك (بانورمه) (٣) وهو محل تنظر فيه فترى المدينة التى تريد تصويرها ، ففى صورة مصر ترى كأنك على منارة السلطان حسن مثلا والرميلة تحتك ، وباقى المدينة، ومنها (كسمورمه (٤)) ، وفيه صورة بلدة ثم أخرى وهكذا · ومنه (ديورمه (٥)) وفيه صورة دار ، ومنها (أورانورمه (٦))

---

(١) Spectacles.

(٢) هى « الشعبثيات : يريد بها ألوان الشعوذة ، ويريد بالسيم : ما يشبه خيال الظل ·

(٣) Panorama

(٤) Cosmorama.

(٥) Diorama

(٦) Uranorama.

وفيه صورة الفلك الأعظم ، وسائر ما يحتوى عليه مصورا على مذهب الافرنج ، فالمتفرج فيه يمكنه أن يطالع علم الفلك ، ومنها (آوروبرمه (١)) وفيه صورة بلاد الافرنج .

ومن المنتزهات محال الرقص المسماة « البال » وفيه الغناء والرقص ، وقل ان دخلت ليلا فى بيت من بيوت الأكابر الا وسمعت به الموسيقى والمغنى ، ولقد مكثنا مدة لا نفهم لغنائهم معنى أصلا ، لعدم معرفتنا بلسانهم ، ولله در من قال فى مثل هذا الأمر :

ولم أفهم معانيها ، ولكن شجت كبدى، فلم أجهل شجاها
فكنت كأننى أعمى معنى يحب الغانيات ولا يراها

(البال) قسمان : (بال) عام ، ويدخله سائر الناس ، (كالبال) فى القهاوى والبساتين ، (وبال) خاص ، وهو أن يدعو الانسان جماعة للرقص والغناء والنزهة ونحو ذلك ، كالفرح فى مصر ، (والبال) دائما مشتمل على الرجال والنساء ، وفيه وقدات عظيمة ، وكراسى للجلوس .

والغالب أن الجلوس للنساء ولا يجلس أحد من الرجال الا اذا اكتفت النساء ، واذا دخلت امرأة على أهل المجلس ، ولم يكن ثم كرسى خال قام لها رجل وأجلسها ، ولا تقوم لها امرأة لتجلسها ، فالأنثى دائما فى المجالس معظمة أكثر من الرجل ، ثم ان الانسان اذا دخل بيت صاحبه فانه يجب عليه أن يحيى صاحبة البيت قبل صاحبه ، ولو كبر مقامه ما أمكن ، فدرجته بعد زوجته أو نساء البيت .

---

(١) L'europeorama.

ومن المنتزهات جمعية الناس ، كضمة (١) مصر ، الا أن فيها دائما آلات الموسيقى والغناء والرقص ، وبين كل نوبة من الموسيقى والغناء يقسم على الحاضرين بعض مطعومات ومشروبات خفيفة . وبالجملة فالموسيقى بالأصالة ، والشراب الخفيف بالتبعية هما حظ هذه المجالس ، كما قال الشاعر :

هل العيش الا ماء كرم مصفق(٢)

ترقرقه فى الكأس ماء غمـــام

وعود « بنان » حين ساعد شدوه

على نغم الأوتار ناى « زنام » (٣)

وقد قلنا ان الرقص عندهم فن من الفنون ، وقد أشار اليــه المسعودى في تاريخه المسمى : « مروج الذهب » فهو نظير المصارعة فى موازنة الأعضاء ودفع قوى بعضها الى بعض ، فليس كل قوى يعرف المصارعة ، بل قد يغلبه ضعيف البنية بواسطة الحيل المقررة عندهم ، وما كل راقص يقدر على دقائق حركات الأعضاء . وظهر أن الرقص والمصارعة مرجعهما شيء واحد يعـرف بالتأمل ، ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والشلبنة لا من الفسق ، فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين الحيـــاء ، بخلاف الرقص فى أرض مصر فانه من خصوصيات النســـاء لأنه لتهييج الشهوات ، وأما فى باريس فانه نط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبدا . وكل انسان يعزم امرأة يرقص معها ، فاذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية ، وهكذا ، وسواء كان يعرفها أو لا ، وتفرح النساء بكثرة الراغبين فى الرقص معهن ، ولا يكفيهن واحد

---

(١) الضمة : جماعة يسيرون حول العريس ليلة العرس يغنون ويصفقون .

(٢) المصفق : الشراب المحول من اناء الى آخر ليصفو .

(٣) بنان وزنام : موسيقيان ، والشعر للبحترى فى الخليفة المتوكل .

ولا اثنـــان • بل يحببن رؤية كثير من الناس يرقص معهن لسآمة أنفسهن من التعلق بشيء واحد ، كما قال الشاعر :

أيـا مـن ليس يرضيها خليل ولا ألفا خليـــل كل عـام
أراك بقية من قوم موسى فهم لايصبرون على طعام

وقد يقـع في الرقص رقصـة مخصوص بأن يرقص الانسان ويـده في خـاصرة من ترقص معـه ، وأغلب الأوقـات يمسـكها بيده • وبالجملة فمس المرأة أياماً كانت في الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى • وكلما حسن خطـــاب الرجل مع النساء ، ومدحهن عد هذا من الأدب • وصاحبة البيت تحيى أهل المجلس •

ومن النزه : المواسم العامة التى تصنع فى الصيف ، ومبناها على الرقص والآلات ، وتسييب البارود ، ونحو ذلك •

ومن المواسم العامة عندهم أيام تسمى أيام (الكرنوال) ، وتسمى عند قبطة مصر أيام الرفاع (١) ، وهى عدة أيام يرخص لسائر الناس فيها سائر التقليدات والتشكلات ، فيتشكل الرجل بشكل امرأة ، والمرأة فى صورة رجل ، ويتراءى (الخواجة) فى صورة راع ونحو ذلك • وبالجملة فيباح سائر مالا يضر براحـــة المملكة وانتظامها •

ويقول الفرنساوية ان هذه الأيام أيام جنون ، ويدور بهذه البلدة فحل أسمن فحول فرنســــا ، فى موكب عظيم مدة أيــام الزفر (٢) الثلاثة ، ثم يذبحونه ويعطون لصاحبه (بخشيشا) فى نظير تسمينه له حتى يسمن سائر الناس عجولهم •

---

(١) الأيام السابقة للصيام •
(٢) أكل لحم الطيور ، كما يسمى فى بعض بلاد مصر الى اليوم •

ومن منتزهات باريس الحدائق العظيمة العامة • ففي باريس نحو أربعة بساتين كبرى يتماشى فيها العام والخاص ، فمنها حديقة (التولري) (١) التي بها قصر الملك ، وهي من أعظم المنتزهات ، يدخلها المتجملون من الناس ، ويحجز الأسافل من دخولها فكأنها مصداق قول بعض الظرفاء :

لو كنت أملك للرياض صيانة يوما لما وصل اللئام ترابها

ومنها حديقة تسمى « الشمزليزه » (٢) ، ومعناه بالعربية : رياض الجنـــة ، وهي من أرق المنتزهات وأنضرها ، وهي بستان عظيم يبلغ أربعين « اربانا » ، و « الاربان » هو قياس يقرب من الفدان • ومع أن طول طريقها نحو ألف قامة فانها موضوعة بحيث انك اذا مددت نظرك رأيت طرفها الثاني قدام عينيك • وفي هذه الروضة العظيمة دائما شيء من الملاهي لايمكن حصره • وسائر أشجار هذا البستان متصافة ، متوازية بعضها مع بعض ، رتبت بحيث انه يوجد مدخل من كل الجهات ، فهو على سمت الخطوط المستقيمة من سائر الجهات • وفي وسط كل جملة من الأشجار يوجد محل مربع ، وهذه الحديقة يتصل أحد جوانبها بنهر السين ، وبينها وبينه رصيف ، وبجانبها الآخر بيوت بأطـراف الخـلاء ، وفيها كثير من القهـاوي (الرسطواطـورات) (٣) ، يعني بيـوت الأكل وفيهـا سائر أنواع الطعام والشراب ، وهي مجمع الأحباب والأكابر ، وبها كثير من المرامح للخيل ، ويدخل فيها الأكابر بالعربات المزينـة ، وفيها عدة آلاف من الكراسي بالأجرة ، يجلس عليها في زمن الربيع نهارا وفي زمن الصيف ليلا ، وأعظم اجتماع الناس فيها يوم الأحد ، فانه يوم البطالة عند الفرنساوية • وبالجملة فهذه الحديقة محل

---

(١) Jardins des Tuileries.

(٢) Chemps-Elysées.

المواسم والأفراح العامة والزينات ، وبها تتماشى سائر النساء الجميلات (١) •

ومن المنتزهات المحال المسماة « البلوار » ، وهي الاشجار المتصافة المتوازية ، وقد أسلفنا بيانها ، وهي محل يتماشى فيه سائر الناس ، في سائر الأيام ، وفيه أعظم قهاوى باريس ، وتدور فيه الآلاتية المتنقلون بآلاتهم ، وفيه كثير من محال (التياترات) • وبه أيضا تدور النساء اللواتي يتعرفن بالرجال ، سيما بالليل ، فهو في جميع الليالي ، وفي ليلة الاثنين ، يحوي كثيرا من الناس ، فترى فيه كل عاشق مع معشوقته ، ذراعه في ذراعها الى نصف الليل ، ويصلح هنا قول الشاعر :

لا تلق الا بليــل من تواصله ... فالشمس نمامة والليل قوام
كم عاشق وظلام الليل يستره ... لاقى الأحبة والواشون رقاد

وقال آخــر :

أيها الليل طر بغير جنــاح ... ليس للعين راحة في الصباح
كيف لا أبغض الصباح وفيه ... بان عني أولو الوجوه الملاح

ولا يمدح الليل الا من ترقب فيه وصال محبوبه ، وتفقد فيه نيل مطلوبة ، بخـلاف من كثر فيه حرقـه ، وزاد أرقه ، وطـال سهاده ، وطار رقاده ، فانه يهوى الصباح ، ليذهب همه ويرتاح ، قال الشاعر :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ... بصبح وما الاصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجـومه ... على صفحات الجوشمدت بيذبل

---

(١) في المطبوع : الجمالات •

وقال آخــر :

ليلى وليلى نفى نومى اختلافهما
بالطول والطول ، ياطوبى لو اعتدلا
يجود بالطول ليلى كلما بخلت
بالطول ليلى ، وان جادت به بخــلا

وقال من يشكو من الليل :

ياليل طــل ، أو لاتطــل لابــد لى أن أســهرك
لو كان عنــدى قمــرى مابت أرعى قمــــرك

وقال آخر مثله :

ياليل طل ، ياشوق دم انى على الحالين صــابر
لى فيك أجــر مجــاهد ان صح أن الليل كافر

وهذا أيضا من باب الشكوى .

ومن المتنزهات أيضا سوق تبــاع فيه الأزهــار ، وفى هذا السوق تجد سائر الأشجار والنباتات والأزهار الغريبة النــادرة ولو فى غير أوانها ، حتى ان الانسان يمكنه أن يجدد بستانا فى يوم واحد بأن يشترى سائر ما يحتاجه ، ثم يزرعه فى يوم . وبالجملة فلا يمكن أن الانسان يتمتع بهذه المتنزهات الا بصحة البدن .

الفصـــل الثامن

[فى سياسة صحة الأبدان بمدينة باريس]

لما كان من ضروريات الحكمة الاعتناء بحفظ صحة الأبدان ، وكان الافرنج أحكم الأمم ، كثر اعتناؤهم بهذا الفن ، وبتكميل آلاته ووسائطه ، وكانوا أشد الناس مسارعة لما فيه نفع للبدن ، كالحمامات والمحام الباردة المياه ، وترييض الجسم وتعويده على الأمور الشاقة ، كالعوم ، وركوب الخيل ، والألعاب التى يخف بها البدن .

والحمامات فى باريس متنوعة ، وفى الحقيقة هى أنظف من حمامات مصر ، غير أن حمامات مصر أنفع منها وأتقن وأحسن فى الجملة ، وذلك أن الحمام فى مدينة باريس عدة خلوات ، فى كل خلوة مغطس من نحاس يسع الانسان فقط . وفى بعض الخلوات مغطسان ، وليس عندهم مغطس عام كما فى مصر ، ولكن هذه العادة أسلم بالنسبة للعورة ، فانه لا طريقة أن يطلع انســـان على عورة آخر ، حتى ان الخلوة التى فيها مغطسان بين كل مغطس ســتارة تمنع أن ينظر الانسان صاحبه . وليس فى دخول الانســـان هذه المغاطس الصغير لذة كالدخـول فى الحمـامات ،ولا يعرق الانسان بها أبـدا ، اذ الحرارة لاتوجـد الا فى المغطس لا فى الخلوة أبدا وان كان يمكن أن يوصى الانسان على حمام بالبخار ، فانهم يصنعون له ذلك ولكن بثمن آخر غير الثمن المعتاد .

وفي الحمام صفان من الخلاوى : صف للرجـــال وصف للنساء ، وكما أنه يوجد حمامات مستقرة يوجد حمامات منقولة ، فاذا طلب الانسان حماما في بيته ، أو كان مريضا ، أو نحو ذلك ، فانهم يحملون اليه في عربة كالبرميل الماء البارد في شقة ، والساخن في أخرى ومعها محم ، فيوضع المحم في بيت الانسان ، ويملأ من الماء المسخن ، فيغتسل الانسان منه ، ثم بعد فراغه يحملونه الى بيت الحمام ٠

ومن الحمامات حمام يضـــع فيـه الانسان بعض بدنه لبعض الأمراض ، فيسمى نصف حمـــام ، والحمـامات بباريس كثيرة ، وأشهرها ثلاثون حماما تقريبا ٠

ومن أمور الرياضات النافعة لصحة البدن مدارس يتعلم فيها علم السباحة ، وهي ثلاثة مكاتب على نهر السين ، ومنها مدارس لتخفيف البدن ، وجعله قابلا للأشـياء العجيبة كالبهلوانيــة ، والمصارعة ، ونحو ذلك ٠

الفصل التاسع

[فى الكلام على اعتناء باريس بالعلوم الطبية]

اعلم أن مدينة باريس هى أعظم مدن الافرنج التى يرحل اليها الغرباء ، لتعلم العلوم خصوصا العلوم الطبية ، وقد ينتقل اليها المرضى من بلاد بعيدة للبحث عن تداويهم فيها ، والعلوم الطبية التى تسمى أيضا علم الحكمة هى : علم الطب والجراحة والتشريح وفن (الفيسيولوجيا) (١) ومعرفة داء الانسان من حاله ، وسياسة الصحة لحفظها وتطبيب الحيوانات وغير ذلك ٠

والحكماء فى باريس كثيرون جدا ، حتى يوجد فى كل خط عدة حكماء ، بل الطرق مملوءة من الحكماء حتى ان الانسان اذا أصيب فى الطريق بداء فانه لابد أن يجد الحكيم حالا ، لكثرة الحكماء بهذه البلدة ٠

ووضع المرضى بالنسبة للأطباء مختلف ، فمن المرضى من يطلب الطبيب ليزوره عنده ، وللحكيم قدر معلوم على كل مرة يأتيها اليه ٠ ومن المرضى من يذهب الى الطبيب فى بيته ٠ وللطبيب ساعات معينة يمكث فيها قصدا فى بيته لتلقى الناس ٠ ومن المرضى من ينتقل مدة معينة فى بيت يسمى بيت الصحة ، معد لمن يدفع قدرا معينا فى نظير أكله وشربه وسكناه وتطبيب بدنه وخدمته ونحو ذلك ٠

---

(١) Physiologie.

وفي باريس بيوت حكماء معدة لمن ابتلي بخلل شيء من عظام البدن ، كالاحديداب فانه يدخل بيتا من هذه البيوت للتطبيب ، فيقومون بدنه بشيء من علم الحيل ، كما اذا كان انسان مقطوع أحد الأطراف ، فانهم يجبرون ذلك بأن يضعوا له من المعدن أو الخشب شيئا في محله ٠

وفي هذه المدينة أيضا بيوت يدخل فيها النساء الحوامل المشرفات على الولادة ، لتلدن فيها وتقضين فيها مدة النفاس ٠ وفي هذه البيوت توجد القوابل وسائر ما يحتاج اليه في الولادة ٠

ومن المواضع المعدة للمرضى والتي يوجد فيها الأطباء المارستانات العامة ، فتدخلها المرضى للعلاج والاقامة مدة المرض بلا عوض ٠

ثم ان الأطباء في باريس فرقتان : احداهما أطباء عامة لمطلق الأمراض على تنويعها والأخرى لمداءات خاصة ٠ وذلك أن علم الطب متسع جدا ، فقل أن يشتغل انسان بسائر فروعه ويحققها ، فاحتاج أطباء الفرنساوية الى أن الطبيب بعد أن يقرأ فروع العلوم الطبية ينبغي له أن يختار منها فنا ليصرف فيه همته ، ويتقوى فيه ويتبحر ، حتى يشتهر ويمتاز عن غيره من الأطباء بتحقيق ذلك الفن، حتى يجلب اليه من به داء يدخله شيء من ذلك الفن ، فلذلك يوجد في باريس أطباء مثلا لخصوص مرض الرئة ، وأطباء لمرض العين تسمى : « المكحلاتية » وأطباء لأمراض الأذنين ، وأطباء لداء الأنف وتجبيره ، حتى ان من أطباء الأنف من يمكنه بالحيلة أن يرجع الأنف المجدوع صحيحا ٠

وفي باريس أطباء تستعمل جاذبية المغناطيس الانسانية ، للاستعانة على مداواة الانسان ٠ وتفصيل ذلك أن في باريس جماعة من الطبائعية ، تزعم أنه ثبت عندهم أن بدن الانسان يشتمل على

مادة سيالية ، يعني جاذبية المغناطيس الانسانيـة ، يعني أن هذه المادة لها خاصية المغناطيس : وتحصل هذه بتقريب اليد عدة مرات، كالمسح ، فينعس الانسان ، أو تغيب حواسه ، حتى لا يحس بشيء ، فاذا غاب وكان مريضا بمرض شديد عالجه الحكماء بقطع شيء أو بفتح شيء من بدنه من غير أن يشعر بشيء أبدا، وقد جرب ذلك في قطع ثدى امرأة ، بعد مغناطيسيتها ، فمكثت عدة أيام ثم ماتت ، فقال علماء المغناطيسية : انها ماتت بسبب آخر لا بألم القطع ، فانها عاشت بعده ، فالمغناطيسية نافعة لمعالجة الأمراض العصبية ٠

وفي باريس أيضـــا حكماء لخصوص مداواة خلل العقل ، أو لألم أعضاء التناسل ، أو الحصوة ، ولخصوص الأمراض الجلدية المنفرة وغيرها ، كالجذام والجرب ٠

وفي باريس أيضا حكماء لتوليد النساء ، فان العادة أيضا في باريس أن المرأة يولدها رجل حكيم عارف بأمور الولادة ٠

وبها حكماء لمعالجة البياضة التي تنزل بالعين ، والماء الذي يعميها ٠ وبها حكماء لأوجاع الصدر وداء الفالج الذي هو شلل بعض الأعضاء ، فيداوونـه بعـلاج يسمى : « الاكمبكتور » (١) (بكسر الهمزة والكاف ، وسكون الميم ، وضم الباء ، وسكون الكاف ، وضم التاء) يعنى شكات دبابيس كثيرة دقيقة ، فيخرجون بذلك شيئا من الدم ، ينفع لتخفيف ضرر هذا الداء ٠ وبها حكماء لعلاج اختلال خلقة الانسان ، وهذا العلاج يسمى : « الأرتوبيدى » (٢) (بضم الهمزة ، وسكون الراء ، وضم التاء ، وكسر الباء ، وسكون الياء ، وفتح الدال) يعنى فن اصلاح خلل أعضاء الأطفال ٠ فمن الحكماء من يصلح خلل الفم أو الوجه ، ومنهم من يشتغل بتدبير الأعضاء الناقصة لسد خللها بأعضاء أخرى مدبرة ٠

---

(١) L'acuponcture.

(٢) L'orthopédie.

ثم ان فروع العلوم الطبية كثيرة ، فالمشهور منها فن التشريح، وفن تمييز أمراض الانسان من حال طبيعته ، وفن الكيمياء العقاقيرية ، وفن أسباب الأمراض الباطنية الطبية ، وعلم الجراحة الطبية ، ووضع العصابة على الجراح ، والتضميد بالمراهم ، وفن تطبيب ملازم الفراش المبتلى بأمراض ظاهرية ، وفن تطبيب ملازم الفراش المبتلى بأمراض باطنية ، وفن معالجة النفساء ، وتوليد الحامل ، وعلم الطبيعة التى تدخل الطب ، وعلم العقاقير والأدوية المفردة أو المركبة ، وصناعة المعالجة ومباشرة المريض ·

ومدارس الحكمة بمدينة باريس منافعها شهيرة ، فمنها مدرسة كبيرة تسمى « أكدمة الحكمة السلطانية ، وهى ديوان الحكماء السلطانية وهى مجعوله لحاجة المملكة الفرنسيسية،ومباشرة الأمراض العامة الضرر ، كالأمراض الوبائية ، والأمراض التى يعتقد الفرنساوية أنها معدية ، وكمرض فصل البهائم ·

ومن وظيفة علماء « أكدمة الحكمة » معالجة سائر الناس بماتجعله المملكة اموقوفا على النفع العام ، كاشهار تلقيح البقرى ، لاخراج الجدرى ، ومتحان الأدوية الجديدة ، والأدوية المكتومة ، وامتحان الأدوية المعدنية الأصلية أو المصطنعة ، لادخالها فى الأدوية · وبالجملة فأهل هذه الجمعية السلطانية أعظم الحكماء الفرنساوية ·

ولنذكر هنا بعض ما يتعلق بمارستانات باريس فى فصل فعل الخير ، وقد أسلفنا بعض شىء من ذلك فى الفصل السابق ·

ولنذكر لك نبذة من فن قانون الصحة ، وتدبير البدن ، حتى تتم فائدة هذه الرحلة · وهذه النبذة ترجمتها فى باريز لقصد استعمال جميع الناس بمصر لها ، لصغر حجمها ، فهى وان كانت تخرجنا عما نحن بصدده ، الا أن منفعتها عظيمة ، وثمرتها جسيمة·

نصيحة الطبيب

المادة الأولى في وصية صحاح البدن :

لاشك أن الأطباء معتبرون بين الناس لشدة نفعهم عندهم ، ومع ذلك فالأولى الاستغناء عنهم لأنهم رفقاء المرضى فلنحرص على حفظ أنفسنا من أسباب المرض ومن الاحتياج الى الطبيبة ·

والدواء المجرب لمنع الاحتياج اليه هو اعتياد الكد والقناعـة ولنذكر لك بعض أمور آخر :

الأول : لا تسكن دارا مماسة لمزرعة مرتفعة أو دارا غائرة فى الأرض يسيرا ، فان كلا هذين الوضعين يجعل الدار رطبة ومضرة للصحة فالعافية ولو كانت قوية تذهب فيهما على تداول الأيام ·

ارفع أرض بيتك بعض قراريط ، برمل أو حصى ، أو طوب مسحوق ، أو ما أشبه ذلك ، وتجنب البناء فى أرض مماسة لأرض أعلى منها · اجعل منافس الهواء الى الجنوب الشرقى أى اجعله بين الشرق والجنوب ، فان ذلك للصحة أسلم من جميع الأوضاع ·

الثانى : الهواء المخزون يجلب الحمى المحرقة ، فوسع طاقاتك ليسهل فيها دخول الهواء والنور ، وافتحها فى غالب الأحيان لأن البرد للصحة أوفق من الحر ،فأهل الجانب الشمالى حياتهم وصحتهم أبرك من أهل الجنوب والمريض يشفى فى غرفـة مفتوحـة لسائر الرياح ، وربما هلك لو كان بجانب الحرارة ·

الثالث : بركة الماء الراكد اذا اشتد قربها من البيوت فانه يتصاعد منها أبخرة لا تناسب الصحة ، بل تؤذيها أو ربما قتلت ، وبسبب ذلك ترى بعض البلدان منتنا بالأوباء فاجتنب هذه الأشياء الجالبة للأمراض والأوجاع ·

الرابع : السكر يرعى البدن ويحرقه ، ويسرع بالمشيب ، فنصيب من ينهمك على شرب الخمور وغيرها من المسكرات أن يصاب بداء الذبول وبقصر الأجل •

الخامس : من أسباب الأمراض اختلاف الزمن كتعاقب الحر والبرد ، ونزول المطر السريع أو نزوله باردا فى وسط الأيام الحارة ، فأولى ما يطرد هذه الأمراض أن تلبس أزيد مما يقتضيه الفصل ، فالبس أثواب الشتاء قبل فراغ الخريف ، ولا تعجل خلعها عند دخول الربيع ، واذا ابتل بدنك كله بماء بارد فاغتسل بالماء الفاتر ، فان لم يبتل الا عضو فقط فاغسله وحده •

السادس : احذر اذا اشتد حرك أن تمكث فى موضع بارد أو تشرب ماء شديد البرودة ، والا فالعرق ينحبس حالا ويتداخل فى الباطن ، ويتسبب عن ذلك داء الخناق وورم الصدر والقولنج (١) المحرق وغير ذلك ، فاذا نفذ القضاء وابتلى بأحدها ، فالواجب تداركه لعله يخف فأول ما تحس بمبادىء العلامات فضع القدمين فى ماء هين الحرارة ، وطر بالماء الفاتر ظاهر المتألم من الحلق أو الصدر أو البطن واحتقن بالماء الفاتر المخلوط بيسير اللبن وتعاطى(الشوربة) التى صورتها أن تأخذ قبضة من زهر « الخمان » وتضعها فى اناء خزف مع أوقية ونصف من جيد الخل ورش على الجميع قدح ماء مغلى وغط الاناء ودعها تبرد ، فمتى بردت هذه (الشوربة) فصفها بخرقة وذوب فيها أوقيتين من العسل ، فاذا فعلت ذلك فقد غنمت ما حرمت منه الطبيب من الدراهم ، فان ما تعطيه له منها ذاهب عن يدك ، وربما كان ذلك الطبيب لا يفيدك فى هذا الداء شيئا •

---

(١) القولنج : مرض معوى مولم يعسر معه خروج الثفل والريح •

المادة الثانية في الدلالة على ما يصنع حين أخذ المرض في الظهور :

اعلم أن كثيرا من الناس باعتناء فاسد يريد أن يداوى المرضى فيهلكهم ، فأول ما يبدو قليل من الحمى أو القيء فلا يجد أحسن من تعريق المريض فيضغطه تحت أغطيــة ثقيلة ، ويحجب عنه الهواء ويسقيه شوربة الخضراوات الحارة وربما سقاه خمرا حارا أو حلواء فهل من الأصحاء من يستطيع حمل ذلك ؟ أو ليس أن هذا يمرض من ليس بمريض ؟ نعم ، قد يكون العــرق به الشــفاء لكن حين تكون الأمراض قد صــدرت عند انحباســه أو بعد تقليــل هذه أو ازالتها بكثرة تعاطى (الشوربات) وعلى كل حال فلابد من ادخال الهواء اللين في موضع المريض : لما أن حاجة الانسان الى الهواء كحاجة السمك الى الماء ، و (الشوربات) الحادة تزيد الحرارة التى تهلك المريض وتحرقه وتيبسه ، والخمر هو سم حقيقى فى الحمى ، فعليك بخلاف ذلك من (الشوربات) الرطبة الباردة فانها تذيب الأخلاط المنفسدة وتسهل خروجها وتجفف الحرارة ، وتنظف المعدة ، وبعض الناس يريد أن يرد العافية لذى القيء فيعطيه المرق : فيضاعف ألمه مع أن من الحقيقة المقررة عنــد أكابر الأطبــاء أن المريض الذى به خمــيرة المعــدة كلمــا أعطوه من الأغذية زاد ضــعفه ، وهذه الأغذية اذا انفسدت بالأخــلاط المعفونة التى تختلط معهــا فى الجــوف تنقلب مرضــا جديدا ، فما يتعين فى شــفاء المريض هو ما يضعف المرض ففى كل عشرين مريضا يموتون فى الأرياف فأكثر من الثلثين يمكن أنه كان يشفى بلاشيء لو كان فى موضع مستور من مضار الريــاح ، وكان لا يشرب الا ماء مبردا • ولكن لا مفر من القدر • وأغلب الأمراض الحادة والحميات يتقدمها أيام تشويش كيسير الخدر ، وقلة النشاط وعدم شهية الأكل ويسير ثقل المعدة والتعب وثقل الرأس والنعاس الثقيل ، عديم الراحة غير المصلح القوى بل وثقل الصدر والميل الى البرودة وتيسر العرق غير

المعتاد وانقطاع العرق المعتاد ، وعنـد ذلك يتيسر تدارك أو تخفيف هذه الأمراض المضرة بأربعة : الأول ترك سائر الأشغال الشاقـة والمداومة على الأشغال الهينـة • الثانى : تقليـل أكل المغذيـات أو اجتنابها لا سيما ترك اللحم والمرق والبيض والنبيذ • الثالث : اكثار الشرب يعنى أن يشرب كل يوم قزازة فأكثر فى كل نصف ساعة طاسة من الشربة المذكورة فى المادة السابقة أو من الماء الفاتر المخلوط فى كل قزازة اما بخمسة عشر أو بعشرين حبة من الملح المعتاد أو بفنجان خل أو بملاعـق من العسل • الرابع : الاحتقان بماء فاتر أو بهذا الدواء وهو أن تأخذ قبضتين من الحشائش أو من زهر الخبازى وتغمرهما وترش عليهما نصف (قزازة) ماء مغلى وتصفيها بخرقة وتضيف عليهما أوقية عسل •

المادة الثالثة : فى الدلالة على ما يصنع حين ظهور المرض :

اعلم انه ينبغى للمريض اذا تلبس بالبـرودة ، أو القى (١) أو الألم أن يلزم الفراش والجلوس ، وأن يتغطى زيادة عن عادته ، وأن يشرب فى كل ربع ساعة فنجانا من مسخن (الشوربة) السابقة، فلا بأس بتغطية المرضى حال بردهم ، ولكن لابد من تخفيف الغطاء كلما خفت البرودة،حتى يكون بمجرد انقطاعها ليس عليهم الا الغطاء المعتـاد •

ثم ان بعض أهالى القرى يعتادون النوم على طراحة مكبوسة ريشا ، ويتغطون بغطاء ثقيل من الزغب ، والحر الصادر عن الريش هو خطر على المحمومين ، لكن لما اعتيد على ذلك يمكن اغتفار هذه العادة فى بعض الأحيان ، الا فى مدة الحر واشتداد الحمى فليتخذ للنوم طراحات مكبوسـة بالقش ، وللغطـاء ملاحف أو آكسية أقل خطرا من الريش فهذا هو ما يريح المريض •

---

(١) فى الأصل : العى •

وينبغي الحـذر من تسخين هواء محـل المريض ، ومن كثرة الناس ، واللغط ، ومن الكلام معه الا على قدر الحاجة ، وينبغي فتح طيقانه ، وأقله ربع ساعة في النهار ، وربع ساعة بالليل ، وينبغي مع فتح الطيقان فتح باب الغرفة ليتجدد الهواء ، ولكن لابعاد المريض عن جريان الأهوية فلتسحب عليه ستائر فراشه ، أو ليحجب عن الهواء بكيفية أخرى ، وفي زمن الحر ينبغي ابقاء طاقة من الطيقان مفتوحـة •

ويحسن أيضا تبخير غرفته بخل مطفى فوق نحو مجرفة حديد محماة •

وينبغي في الهجير ، والمريض متعب بالهواء الحار ، أن يرش بلاط غرفته ، وأن يوضع فيها فروع غليظة من شجر الصفصاف ونحوه ، تغمس في اناء فيه ماء ، لتكون مسقية •

وليجتنب المريض تناول الأطعمة المغذية ، ولا يأكل الا يسيرا من خفيف الثريد المنضج أو الأرز المطبوخ بالماء مع يسير من الملح ، ولا بأس في الصيف بالأثمار المستوية وفي الشتاء بالتفاح المنضج، أو البرقوق والاجاص ، بعد تيبسهما وطبخهما ، فهذه الأثمار اذا أكلت بلا اكثار منها تروى وتبرد وتصلح الصفراء المنفسدة الحارة ، فهي الأغذية اللائقة بالمحموم ، واستعمل الشراب الرطب ، والمبرد الذي ذكرناه سابقا ، ولا بأس أيضا أن تضع في نحو (قزازة الماء) طاسة من عصير الفواكه التي ذكرناها قريبا •

وينبغي للمريض أن يشرب كل يوم (قزازتين) من ماء فأكثر، وأن يتناول في المرة يسيرا ، ففي كل ربع ساعة يشرب فنجانا ما لم ينم • واللائق أن يكون الشراب غير شديد البرودة ، ففي اعتدال الزمن يكون في مزاج طراوة نسيم الغرفة •

ولو امتنع المريض من حاجة الانسان جملة أيام ، أو لم يبل بكثرة أو خرج بوله أحمر ، أو خلط في كلامه ، أو كانت (حمته)

قوية ، أو كان وجع رأسه أو كليته شديدا أو كانت بطنه متألمة ، أو كان محتاجا كثيرا الى النوم فليحتقن كل يوم مرة بالحقنة المركبة مما سبق ذكره في المادة الثانيــة ، فالاحتقان شفاء المحموم الا اذا حدث للمريض العرق النافع فلا يحتقن ٠

واذا خف المرض فينبغي الخروج من الفراش في اليوم ساعة فأكثر ، كما يمكنه ، ولكنه لا أقل من نصف ساعة ، ولا ينبغي ترك فراشه وهو متلبس بالعرق ٠

ومن المستحسن تصليح فراشه كل يوم ، وتغيير ما على بدنه كل يومين ، اذا تيسر ذلك ٠ ومن الضرر البين الحكم بخلاف ذلك ، واعتقاد انه يخشى على المريض من خروجه من فراشه ، فيتركه في ثيابه المتسخة ٠ وهذه الثياب لا تقتصر في أضرارها على ابقاء أصل المرض فقط ، بل تقويه ٠ (ولو) قيل ، ان المريض تعبان جدا ٠ وهذه حجة عاطلة ولو سلم أن استعمال ذلك يتعبه درجة فانه يزيد مابقي من قوته ، ويسرع تخفيف ألمه ٠

المادة الرابعة : في معالجة الناقه :

اعلم أنه مادام بالانسان قليل من الحمى فلا يتناول الا الأغذية الخفيفة التي بيناها ، فاذا انقطع عرق الحمى فلا بأس أن يتناول غيرها كقليل من اللحم الطري ، أو السمك ، أو المرقــة أو البيض هين النضج ، فهذه الأغذية تصلح القوى بشرط عدم الاكثار فيما يتناول منها ، والا فتبطيء الصحة : لأن المعدة الضعيفة من المرض ليست متأهلة الا ليسير الهضم ، فلو أعطيتها فوق ما في قوتها لم ينهضم سائر ما يدخل فيها ، بل ينفسد ، وقوام البدن انما هو بما تهضمه المعدة لا بما يصل اليها فقط ، فينبغي للناقه أن يكون كالمريض في تناوله قليلا في كل مرة ، ولكن في غــالب الأوقات ، وأن لا يتعاطى في المرة الا جنسا واحدا من الأطعمة ، وأن لا يكثر من تغيير الأطعمة ، وأن لا يستعجل في مضغ ما يتناوله من الجوامد ،

وأن لا يكثر من الشرب ، وخير الشراب هو الماء المخلوط بشيء من الأنبذة .

وليسر على قدر ما يستطيع ما شيا أو راكبا عربة أو فرسا ، ومن العبث ترك ركوب الخيل في هذه الحالة لمن يملك الخيل ، كأغلب أهل الأرياف . واذا كان السير بعد تناول الطعام كان مقويا لمادة الهضم بخلاف فعله قبل ، فهو ربما يضر الهضم ، وليتناول من قام من المرض يسيرا من الطعام في المساء ، لأن النوم أريح وأصلح له من الأكل ، ولا يضره عدم قضاء الحاجة كل يوم ، نعم اذا جاوز يومين من غير خروج شيء فليحتقن ثالث يوم ، أو قبله ان علم أن قبض بطنه تتولد عنه الحرارة ، أو الانتفاخ ، أو ضيق الصدر ، أو وجع الرأس ، وينبغي لمن قام من مرضه جديدا ألا يسرع في العود الى شغله فان لم يصبر الى تمام عافيته طال ضعفه،فالاستعجال على الشغل قبل أوانه يعقبه من الخسارة زيادة على ما يؤمل كسبه ، فان لم يتحفظ على نفسه ، والا أصابه مرض الذبول فينبغي حين ارادة الأخذ للمبادي مراقبة العواقب .

المادة الخامسة : في وصايا عامة على الصحة :

اتخذ القناعة في الأكل ، فمن لم يقنع لا يشبع بل يهلك نفسه . قيل :

« من أرخى على الطعام طويل عنانه،حفر مقبرته بحدة أسنانه »

لا تأكل دون مرتين في اليوم ، بل لا بأس بثلاثة ، والصغار لهم أن يأكلوا أربع مرات بل خمسا .

لا تنم عقب الأكل ، ومدة النوم للسليم ست ساعات أو سبع، وللضعيف والصغير أطول من ذلك .

تضمحل القوة والعقل ، ويذهب كل منهما باعتياد تطويل النوم .

النظافة نصف الصحة ، فلتكن فى البدن والثوب والمسكن والغذاء والمتاع •

لا تمضغ الدخان ، ولا تنتشق به فكثرة اللعاب الذى يكسبه للطبيعة مضعفة على طول الزمن ، وبه يضيع الريق اللازم فى الهضم، وينتن النفس ، وتسود الأسنان ، وتنفسد ، وقد شوهد أن كثيرا من الناس اعترته الحماقة بالاكثار من شرب الدخان أو شم النشوق•

اياك والانهماك على تعاطى الخمور والمسكرات سيما أيام الصوم ، وقد توهم أنها تشد القوى ، مع أن القوة المستفادة من تعاطيها تمر فى أدنى زمن ، ويعقبها وهن ، وذلك كما أن النار تذكو اذا أكثرت من نفخها وترعى الوقود سريعا ، ولا تعطى الحرارة الا درجة •

وأما الفلاحون الذين يشتغلون فى وقت الصيف فعليهم تغطية رءوسهم وأن يتداركوا أشغالهم •

المادة السادسة : فى معالجات لجملة علل وأمراض :

الأول : الزكام والنزلة • يقال : هذا ليس بشىء ، ان هو الا زكام أو نزلة • نعم ، نسلم أن الانسان لا يموت بذلك ، لكن يتسبب عن ذلك حرارة الصدر المهلكة له •

ومن كلام بعض الحكماء الأقدمين : يهلك بالنزلة والزكام أبلغ مما يهلك بالوباء • وعلاج ذلك : استعمال الشربة المذكورة فى المادة الأولى ، أو تعاطى سلاقة الخمان التى ربعها أو ثلثها لبن ، وينبغى قبيل النوم وضع الرجلين فى الماء الفاتر ، ولو انحبست البطن تعين الاحتقان • وينبغى الاقتصار على تناول الأطعمة الخفيفة ، وتعاطى اليسير فى المأكل ، ولا بأس بتعاطى بعض طاسات من خفيف مرقة الخشخاش الأحمر • وقد توهم بعضهم أن هذا الداء يذهب بالعرقى

المحروق ، أو الخمر المعطر ، أو الحلو ، مع أن هذا كالقاء الحطب في النار ، اذ هذه الأشربة أقرب في تثقيل هذا الداء من ازالته ، أو ليس أن هذا الداء حرارة وهي تزداد بهذه الأشربة •

الثاني : وجع الأسنان اذا كان الوجع ناشئا عن فساد السن فخير علاجه ، كما قيل الكلبتان • فاللائق قلعه ، والا دام الوجع ، وفسد غيره من الأسنان ، وربما جر ذلك الى فساد الحنك ، ولكن لو اختير بقاء السن خوفا من قلعه فلا بأس أن نختبر ، بأن تلطخ على موضع الفساد قطنة مبلولة في قطرات من عصير القرنفل ، فان ذلك يصلحها زمنا طويلا ، وربما كانت نهايته تفتتها وسقوطها ، ويمكن أيضا اصلاحها بأن تلطخ على ذلك الموضع قطعة صغيرة من عرق عاقر قرحا ، وتتمضمض بسليق النبات المسمى : حشيشة الفضة ، وأما اذا تحرك الوجع من غير أن تكون الأسنان منفسدة ، فأدم الغرغرة بالشعير ، أو بالماء واللبن ، وتضميد الصدغ بالضماد المطرى ، واتخذ الحموم جملة ليسال بماء فاتر ولا تشرب الأنبذة المخدرة ولا تكثر من الأكل • وأما اذا كان بالأسنان قرح فتنضيجه بأن تديم في فمك لبنا أو تينا مطبوخا في لبن ، فاذا نضج فافتحه فانه سهل غير مؤلم •

الثالث : السكتة اعلم أن داء السكتة يأتي الانسان فجاءة فيعطل الحواس والحركات الاختيارية ما عدا النبض ، وبه يعسر التنفس ، وهذا المرض مخوف فتجب المسارعة الى الطبيب • ومدة انتظار حضوره يجب أولا كشف رأس المريض ، وتغطية ما عداه من البدن بشيء خفيف جدا ، وجلب الهواء الطرى عنده ، وفتح طوقه (١) بالكلية ثانيا : يقام حسبما يمكن رأسه الى أعلى ورجلاه الى أسفل • ثالثا : يحقن بحقنة مصنوعة من سلاقة الحشائش

---

(١) الطوق : (الياقة) : الجيب •

الطرية والملح • رابعا : اسقه كثيرا من الماء حسب الامكان • خامسا : ابعاده عن الأشربة المخدرة كالخمر ، وكذلك الماء المعطر شربا وضمادا وسعوطا • سادسا : عـدم مسه وتحريكه الا للضرورة • سابعا : عصب الرجلين تحت الداغصة ، وهى العظم المدور والمتحرك فى وسط الركبة ، حتى ينحجب الدم عن الصعود الى الرأس ، وربما يرجع داء السكتة بعد ذهابه ، وكلما رجع ، كان أصعب مما قبله ، فالواجب تداركه من قبل بأن يأكل وهو فى هذه الحالة قليلا جدا ، وأولى ما ينفع له أن يترك العشاء ، وأن يتجنب الأشياء الغزيرة المائية ، وطيبات الروائح والحوامض والأشربة المقوية والقهوة ، وأن يأكل قليـلا من اللحم كثيرا من الخضراوات والفواكه ، وأن يشرب دواء مسهلا مرتين أو ثلاثا ، كل سنة ، وأن يتريض ، وأن لا يكثر من السخونة فى (أودته) أو حرارة الشمس ، وألا يتأخر فى النوم أو فى القيام منه ، وأن لا يلبث فوق ثمان ساعات فى فراشه •

الرابع : ضربـة الشمس ، هو مـرض يصيب الانســان متى اعترض فى الشمس زمنا طويلا عريان الرأس ، فيعرف هذا المرض بوجع الرأس الشديد ، واحترار البشرة واحمرار العيون ، وجمود الدموع،وضعف البصر عن الامتداد الى الضوء • وقد يحصل للمريض به سهر ، وربما أحس بالنوم وقلق (قلقا) شديدا • وفى الغالب تكون بشرة الوجه محترقة ، فالمريض لا يزال شديـدا حتى يأتى الطبيب سريعا ، فينبغى فى مدة انتظاره أن تضع رجلى المريض فى ماء فاتر ، وتدخله نصف حمام ، أو حماما كاملا ، واحتقنه بأعشاب مطرية واسقه كثيرا من شربة الليمون والماء ، أو اسقه ماء مخلوطا بيسير الخل • وأنفع من ذلك مصل اللبن الصافى المخلوط بيسير الخل ، والطخ على جبهته وصدغه ورأسه خوقـة مطراة بماء بارد وخل معـا •

الخامس : نهش السميات • أولا أخرج الزبـان اذا لصقت

بالمحل الملدوغ • ثانيا : نعهده بالماء • ثالثا : الطخ عليه اما كزبرة أو كرفسا أو زهر الخمان • رابعا : فان عظم الحرقان فأسرع ما ينفع هو أن تبل خرقة صوف فى سلاقة الخمان وتلطخها ، وهى هنية الحرارة خامسا : أن تلصق على الوجع لبخة من سحيق بزر الكتان أو من لباب الخبز الممزوج باللبن أو العسل •

السادس : قاعدة يجب اتباعها فى تعهد الصغار والأطفال • حق على الأمهات اللاتى يردن حفظ صحة أبنائهن وتربيتهم أن يتركن عوائد البربر من لف الأطفال بكيفية يمتنع معها تحركهم ، وتنقل أرجلهم أو أيديهم ، فكيف يقلن لو أخبرهن انسان أن اللازم لصحتهن أن يحتبسن فى أثوابهن وأن يلصقن أذرعتهن ببدنهن،وألا يتحركن، كالمسلسل ! فلأى شىء يصنعن ذلك بأطفالهن ، وهم ضعاف ، فليطلقنهم يتحركوا وليعرضن أطرافهم للهواء • من يتوهم من غير مستند أن الفرس الصغير أو العجل كذلك من المستحسن لصحتهما ربطهما تكتيفهما على ذلك الوجه ، أو ليس أن حكم تربية الآدمى كغيره من باقى الحيوانات ؟ •

السابع : السم بالفطر (١) وهى جنس ردىء من الكمأة ، كثير من الناس من يهلك بميله الى الفطر ، وكان الأحسن فى حقهم يقيناً أن يتجنبوه • وقد شوهد غير مرة أن الأم تحمل لعيالها كثيرا من الفطر لتبرئهم به فتقتلهم بيدها ، وأعمال هذا النبات السمى لا يظهر الا بعد مضى ست ساعات الى اثنتى عشرة ، فأول ما تحس بها أطلب الطبيب وتناول مدة انتظار حضوره حبتين أو ثلاث حبات من الطرطير مقىء أى ملح الطرطير : المقىء بعد تذويبه فى طاستى ماء •

الثامن : السم بالزنجار • اعلم أن آنية النحاس التى تستعمل فيها المطبوخات هى خطرة بسبب زنجرتها سريعا ، والزنجار سم

---

(١) يسمى بنات أوبر •

قوى ، فلتبيض أوانيك وقتا بعد وقت بالقصدير ، ولا تترك الأطعمة تبرد فيها ، خصوصا اذا كان بها الخل أو الحماض أو الحريفات أو الدسمة ، فاذا اعتراك وأنت محترز عن ذلك قولنج أوقيىء فامزج نحو خمسة عشر من بياض البيض فى (قزازتى) ماء ، واشرب منها طاسة فى نحو دقيقتين لتتقايأ السم ، فان لم تجد البيض فأكثر من شرب اللبن فان عدمت اللبن فمن الماء المحلى أو ماء الصمغ •

التاسع : داء الكلب ، وهو معروف لسائر الناس بوصفه وعمله الرديئين ، وهو يتولد طبيعة فى الزئاب والثعالب والسنانير وخصوصا فى الكلاب • وعضة الحيوان الكلب تكسب هذا الداء للآدميين وغيرهم من الحيوانات • وعلامة الكلب الكلب أنك تراه أولا كئيبا ذابلا مدة أيام ، فيختفى ، ويسلك المحال المظلمة ، ولا ينبح ، بل يختفى ويترك المأكل والمشرب ، ثم يهجر بيت أصحابه ، ويجرى من جهة الى أخرى ، ويقف شعره ، ويبتل لسانه من اللعاب، ويتدلى من فمه ، وينعوج ذنبه بين رجليه ، ويهرب من المائعات ويهم أن يعض سائر الناس ، حتى صاحبه ، ثم يموت بعد يوم أو يومين بشدة مصارعته ، وتفوح من جيفته رائحة منتنة ، فالواجب حينئذ دفنها فى عميق من الأرض •

ومتى عض هذا الكلب الانسان فان الجرح من عادته أن يلتئم بالسهولة ، كأنه غير متسمم ، وبعد مدة قليلة أو كثيرة ، وهى ثلاثة أسابيع الى ثلاثة أشهر يحس بالجرح وجع مكتوم ، فينتفخ أثره ، ويحمر ، وينتفخ ، ويقيح ، ومدته تخرج حارة منتنة محمرة ، ويذوق المريض الكآبة والخدر والكسل والبرودة ، ويعسر عليه التنفس ، ويمسك الوجع أمعاءه ، يضطرب فى نعاسه ، يعطش عطشا مهلكا ، ويقاسى اذا شرب ، ثم يعتريه الارتعاد من الماء والمائع ، ويبح صوته ، ثم يجن ويموت • وليس من شأن من أصيب بهذا الداء أن يعض غيره دائما ، بل معظم المبتلين بهذا الداء اذا أحس هجومه عليه ينصح

الحاضرين بأن يكونوا منه على حذر • وما يذوقه من الألم تقصر عنه العبارة ، فيتمنى ولو الموت •

ومعالجته هي : أن أول ما يعضه الكلب تسرع الدواء فيه ، فان توانيت سرح السم الى الدم ، ولا يجدى التطبيب شيئا ، وذلك هو أن تستخرج الدم من الجرح بعد كشفه ، وتغسله بماء مملح ، وتكويه بحديدة بعد احراقها فى النار حتى تبيض بعد الاحمرار وتغرزها فى سائر أقطار الجرح ، فلو بقى جزء من الجرح غير محكم الكى كان الكى كلا شيء ، ويصح أن تستعمل بدل الحديدة المحرقة دهن الزاج فتدخله بين شفتى الجرح وتجريه فى سائره ، ومتى انكوى اللحم تغطيه بخرقة مدهونة بالقيروطى ، أى المرهم ، أو بالزبدة الطرية ، واعلم أنه يجب غسل الثياب المثقوبة بأسنان الكلب الكلب ، لما أنها حين تشربت من ريقه تخلل بها جزء من سمه • وما تقدم لك هو الكيفية المتعينة المجربة فى هذا المرض الشديد ، فلا تتردد ، أو تخف قليلا من الألم الذى يطرد غيره من الألم الشديد، أو الهلاك المفزع ، وأيضا لو طلبت الحكيم لأثبت لك بسداد رأيه هذه المعالجات السالفة ، ولا بأس أن تستعمل هذا الدواء فى أى حيوان معضوض بكلب كلب •

وأزل ما على الجرح من الشعر ، ولو كان المعضوض أذنا أوذنبا فلتقطعه ولتكو على ما سبق موضع القطع • وينبغى أن تعزل البهائم المعضوضة عن غيرها من سائر البهائم حتى يزول ما بها ولا تعدى غيرها •

العاشر : الاستعانة على افاقة الغريق •

لا تيأس من افاقة الغريق الا اذا أخذ بدنه فى العفونة ، فحينئذ ولو مضت ساعات كثيرة من وقت غرقه ، أو ذهبت حركته بالكلية ، أو فقد أمارات الحياة فافعل به ما يستحقه عليك من واجبات

الأخوة : فقبل كل شيء اطرد من اجتمع عليه من الخلق لأنه يضيق الصدر ، ويحجب الهواء •

ثانيا : لو رأيت الغريق قد فقد الحس والحركة فأمل رأسه ، بحيث يكون وجهه الى أسفل ، وافتح شفتيه ، حتى يخرج بسهولة الماء الذى قد دخل من الفم أو الأنف ، وارفع رأسه مغطاة بقلنسوة من صوف ان تيسرت ، وادرج باقى بدنه فى نحو ملحفة •

ثالثا : أنقله سريعا الى أقرب موضع •

رابعا : بعد وصوله اخلع ما عليه من الثياب بأسهل ما يمكن، ولو بقطعها بآلات ان لزم •

خامسا : افرش له عند ذلك بعض طراحات و (مخدات) بها بعض صلابة واجعلها قريبا من نار متقـدة ، وضع فوق الطراريـح ملحفة من الصوف ، ورقـد الغريق فوقهـا مرفوع الرأس ملفوف البـدن •

سادسا : دلك البدن تحت الملحفـة بالرفق بخـرقة صوف مدفأة يابسة ، ثم دلك ، بالمائات القوية المستقطرة على ظاهر بدنه خصوصا على السرة وما حولهـا ، والأولى خصوصـا فى الشتاء أن تسخن عاجلا ماء ، وتملأ منه مثانـات (١) على الثلثين من ماء هـين الحرارة ، وتضعها فوق أجزاء البدن المحتاجة للحرارة •

سابعا : مدة الدلك أو عقب وضـع المثانات ينبغى أن تدخل الهواء فى صدره ، بأن تضع قصبة أو ريشة فى فم المريض ، أو فى احدى طاقتى أنفه ، مع فتح الأخرى ، وانفخ فى تلك القصبة بمنفاخ لدفع الهواء فيها ، فان كان النفخ فى الفم فاقبض الأنف ، ولكن أرخ أصابعك مرة بعد أخرى ، ليخرج منه الهواء أحيانا •

---

(١) زجاجات •

ثامنا : أشممه القلى البخارى ، يعنى الروح البخارية من ملح النشادر ، بأن تقرطس ورقة حتى تكون مبرومـة فى صورة فتيلة وتشربها من (قزازة)قلى بخارى ، وتعرضها تحت أنف الغريـق أو تداخلها فى منخاره ، وتكرر هذا العمل مرارا بالرفق .

تاسعا : ألعقه ان أمكن يسيرا من روح الأنبذة المخلوط بالكافور، وربما مكث هذا المانع فى فمه يسيرا من الزمن ، ثم بلعه ولكن لاتملأ فمه منه حتى يتعسر بلعه .

عاشرا : لو بلعها فأعطه أكثر منها فلو تحركت معدته من غير وجود قيىء ، وذلك مما يتعبه فأعطه ثلاث حبوب من الطرطر المقيىء مذوبة فى ثلاثة أو أربعة ملاعق ماء ، فان تقايأ بهذه الكيفية فاسقه ماء فاترا ، وان أنزل من المخرج شيئا فقوه بتناوله شيئا من الأنبذة .

حادى عشر : لو أبطأ عن الاحساس فاحقنه حقنة حريفـة ، وصورتها أن تأخذ أوراقا يابسة من الدخان ، قدر نصف أوقية ، ومن الملح المعتاد ثلاثة دراهم ، وتغلى ذلك فى مقدار من الماء يعادله نحو ربع ساعة وتحقنه به . ويصح أن تؤلف هذه الحقنة من نصف طاسة ماء وطاسة خل ، وربع رطل من الملح المعتاد . وهذه كيفية معالجة الافاقة للغريق ، وتدبيرها ممكن لكل انسان ، حتى يحضر الطبيب ، فيعينهم أيضا ، ولو كانت مفيدة ، ففائدتها لا تحصـل الابعد التدبير مدة ساعات على التوالى ، ففائدة ذلك بطيئة خفية ، ولذلك كان اللازم استدامة ذلك زمنا ، فمن الغرقى من لا يفيق الا بعد ستساعات أو سبع من مبدأ خروجه من الماء .

الحادى عشر : غيبوبة الحياة برائحة بيوت الأخلية والبالوعات والآبار والمجارى ونحوها .

أولا : أخرج سريعا من أصيب بهذا الداء ، وضعه تحت الهواء.

ثانيا : جرده من الثياب ، ورش على بدنه ماء باردا : أو ماء مشوبا بخل ، وهو أولى ، وأولى منه حامض الجير ٠

ثالثا : ألعقه ماء باردا ممزوجا بقليل من الخل ٠

رابعا : احقنه بحقنة ماء بارد ثلثها خل ، ثم بعد ذلك احقنه بملح ذائب ٠

خامسا : أدخل فى أنفه طرف شعر ريشة ، وحركها بالرفق ٠

سادسا : أدخل الهواء فى صدره بواسطة قصبة ، وانفخها بمنفاخ ، كما سلف فى الغريق عند العمل ٠

السابع : اسلك سبيل النشاط والاستعجال فى هذه المعالجة ، فكلما أبطأت كلما ظن اليأس من انتاجها ، ولما كان الموت لا ينكشف الا بعد مدة ، تحتم ادامة المعالجة حتى يتيقن ٠

الثانى عشر : غيبوبة الحياة بالبرودة :

اعلم أن شدة البرد قد تستحكم بأعمالها فى الانسان ، فتجمد الأعضاء ، وتحبس جريان الدم ، وربما مات بها الانسان ، ودواؤها مخوف العاقبة جدا وان كان لا ألم به أبدا ، فمباديها هو الرعشة التى تكاد تصرع الانسان ، وصلابة الجسم ، وانحباس الدم ، وخدر المفاصل ، وذهاب الاحساس ، والتذاذ البدن بالنوم ، وانقياده اليه ولو بالقهر ، وانقطاع حركات الحياة على التدريج ، وعاقبته خروج المبتلى به من حيز الأحياء الى حيز الأموات ، وفى الحقيقة حركات الحياة ليست الا متوقفة ، فعليك أن تسرع فى معالجته بدواء ، سواء ذهبت أمارات الحياة بالكلية ، أو بقى منها شيء ٠ واعلم أن بعض الناس توهم أن معالجة افاقته تكون بالحرارة ، وهذا وهم فاسد ، لاضرار الحرارة بكثير من الناس ، ولكن معالجته هى أن تلف أولا بدنه فى محلفة من صوف ، وتحمله

الى أقرب ما يرتاح فيه من الأماكن ، وتخلع ثيابه وتضعه فى فرش غير محمى • ثانيا : اذا كان عندك ثلج فدلك البدن مع رفق بشىء من ذلك ، مارا من القلب الى المفاصل ، ثم بعد لحظات آدلكه بدل الثلج بخرقة مسقية بماء بارد ، وبعده بماء فاتر ، ثم بماء مسخن ورش على وجهه شيئا من هذه المياه ثالثا : لو تعذر الثلج فضعه فى حمام فيه ماء بئر بارد ، وبعد نحو ثلاث دقائق أفرغ عليه قليلا من الماء المسخن • وهلم جرا ، فأفرغ عليه كل ثلاث دقائق ، حتى تذهب برودة الماء على التدريج ، ويصير فاترا معتدلا ، واعمل جميع ذلك نحو ثلاثة أرباع ساعة فقط ، فان استشعرت برجوع حركة نبض المريض فلك أن تزيد حرارة الحمام ، حتى يصير فى درجة سخونة الحمام المعتاد • وما دام المريض فى الحمام فرش على وجهه يسيرا من ماء بارد بعد تدليكه بخرقة رقيقة • رابعا : الهواء فى صدره بواسطة أنبوبة أو منفاخ ، كما سبق فى الغريق • سادسا : أعطه سفوفا حبات من الملح المعتاد ، وألعقه لعقتين ماء باردا مخلوطا بقطرات من ماء الملكة • سابعا : اذا بقى بالمريض الخدر ، فاسقه قليلا من ماء ممزوج بخل وان كان نومه به سباتا فاحقنه بحقنة حادة، وهى ما تقدمت فى شأن الغريق • ومن سوء الخطأ توهم أن استعمال الخمور والمسكرات القوية ، يمكن أن يتدارك به ابعاد هذا الداء، مع أن الأمر بعكس ذلك ، وهو أن كثرة الأشربة تحبس جريان الدم ، فمن ينهمك على تعاطيها فهو أشد تأثرا من غيره بآفات البرودة •

الثالث عشر : غيبوبة الحياة بدخان الفحم ، كل من يمكث فى غرفة مغلقة موقد (١) بها فحم فقد ألقى نفسه فى مهلكة ، فمبدؤها يحصل للانسان شدة وجع الرأس ، وبعد ذلك يعتريه

---

(١) فى الأصل : مغلوقة موقود •

تعسر النفس ، ثم يقع فى ذبول ، كحالة الموتى ، فان عولج فذاك ، والا هلك ·

ومعالجته هى أن تسرع الى تعريضه فى الهواء وتجرده من أثوابه ، وتنيمه على ظهره ، وتسقيه ماء ممزوجا بخل وترش من هذا الماء على وجهه وصدره ، وتبل خرقة من ذلك الماء وتدلك بدنه بها ، وتمسح وجهه ثم تعيد ذلك عدة مرات ، وتقرب نحو مشامه عود كبريت مشتعلا ، أو غيره من حاد الرائحة ، وتغمزه فى باطن أنفه بطرف ريشة ، وتحقنه مرتين : الأولى بماء ممزوج بخل والثانية بماء ملح ، فان بقى بعد ذلك على حالته فدلك فقار ظهره بممسحة من عرف حيوان والطخ شيئا من معجون الخردل على بطن رجليه ، وأدخل الهواء فى صدره بأن تدخل فى احدى طاقتى أنفه فم منفاخ وليس فى الغالب يفوق المريض ، فان ساعدتك المقادير على افاقته ، وتنفخ ، والحال أن الأخرى مسدودة ، فاجتهد وواظب على ذلك ، وليس فى الغالب يفوق المريض فان ساعدتك المقادير على افاقتـه وظهر شىء من أمارات الحياة فضعه فى فرش عظيم التسخين ، فى غرفة بها الهواء والعقه شيئا من خير الأشربة ·

الرابع عشر : فى معالجة الحرق أول ما يحترق عضو الانسان فليغمس العضو فى أبرد ما يمكن من الماء ، وان تعذر غمسه فى الماء فرشه دائما باسفنجة مملوءة منه ، وكلما تسخن الماء المستعمل فى ذلك الغسل فجدده ، وواظب على ذلك ساعات ، وافتح ما ينتفخ من الدمامل بطرف ابرة واحذر أن تفشخها أو تسلخ البشرة ، ثم ألطخ على ذلك العضو المرهم الملصوق على بعض خرقة رقيقة بورق اللازوق ومحل هذا كله مالم يمض نصف ساعة قبل غسل العضو المحترق فى ماء بارد ، والا فهذا الدواء يكون مضرا ، بل فى هذه الحالة لابد أن تكتفى باستعمال المرهـم الذى تنوب عنه الزبدة الطرية ، ولو رأيت الحرق امتد على العضو بتمامه فعليك بالحكيم لتستعين به على ذلك ·

الخامس عشر : في الجـدرى والتخلص من مجيئـه بتلقيح البقـرى ٠

أمر الجدرى معلوم ، وكونه اما قاتلا أو مشوها ، لا سيما بالوجه بين عند سائر الناس ، وربما أذهب البصر وأورث أسقاما لا تنقضى الا بانقضاء الأجل ، وهناك طـريقة لتـداركه قبـل أوانه مجربـة فمن مرض بالجـدرى مع وجودهـا فهو من سوء تفـريط والديه واهمالهما ، فعلى أبى الانسان وأمه المبادرة لذلك ، فاذا بلغ سن المولود ستة أسابيع الى ثمانية وجب طلب الحكيم ليخرج سم الجدرى بالتلقيح ولا عذر لهما ان أهمـلا في ذلك ، لقدرتهما على مداواة ولدهما ، فلو تركاه حتى أصيب بالجدرى فقد فات أوان استعمال تلقيح البقرى ، فيندمان حيث لا ينفع الندم ٠

وفي بعض الممالك تلقيح البقرى للأطفال معين على بيت المال ، فلا كلفه فيه خصوصا على الفقراء ، فعلى أهل هذه المملكة أن يقبلوا عليه في الحال ، ولا يتأخروا الى غد ، فربما في اليوم القابل تحرك سم الجدرى ، ولا يغتر بقول من يزعم أنه غير مثمر شيئا ، فصحيح التجربة أوضح فائدة استعماله ، ومن استعمله لطفل فأصيب الطفل بعد ذلك بالجدرى فذلك لفقد شروط : كان التلقيح كان غير محكم الوضع ، والحبات التى أخذت كانت غير تامة ، فاذا استعملته في المولود فأطلع الحكيم على حبات البقرى تتحقق اصابة استعماله وعدمها ، واستعمال تلقيح البقرى غير مؤلم فهو أخف من شكة ابرة ولا يمرض به الانسان ، ويصح استعماله لأى عمر كان ٠

والجدرى داء متوقع مدة أجل الانسان ، حتى كأنه دين مآله الى القضاء ، وقضاؤه يحصل بالمسارعة الى استعمال تلقيح البقرى لمن يريد التخلص من اصابته ٠

خاتمــة

هذا آخر ما أردنا شرحه من النصائح النافعة للصحة ، فالصحة جوهر نفيس عن سائر ما عداه ، اذ بسلبها لا تنفع زينة الحياة ، فما ثمرة الأموال لعليل ، لا يتمتع منها بشفاء الغليل . يذهب المريض كنوز ذهبه ، لمن يبريه من وصبه ، ومع ذلك قد يكون خلاف غرضه ، فلا يصح له الشفاء من مرضه ، تقرع الأمراض باب الخطير ، على نسق ما تقرع باب الحقير . ولا ترق لشكواه ، ولا تسمع دعواه . حكمة بالغة للحكم العدل ، ذى الاقتدار والفضل ، فليس بنا قوة ولا حول ، بل الكل بحول وقوة ذى الطول . فهو الممرض والشافى ، والمبتلي والمعافي ، ها نحن الآن فى حيز الحياة والثبات ، ولا ندرى هل نعد غدا فى زمرة الأموات ؟ فهذا سر خفي لا نصل الى فهمه ، كيف وقد اســـتأثر به الله فى غامض علمـــه ! فلا تثق بالمخايل الظاهرة ، من الصحة الزاهية الزاهرة ، فربما فى أسرع من البرق اللامع ، تعترينا الأمراض وتلزمنا المضاجع . وقدرتنا على القبض على الأجل ، وحفظ الصحة من الخلل . كاقتدارنا على عروج السما ، واتخاذ الأفلاك ملزما . فعلينا بالاستعداد للمعاد ، ولنكن كالمسافر المستحضر على الحمل والزاد . العازم على الرحيل ، الجازم من الاقامة بالقليل . قد كان بالأمس نوبة الجار ، وستأتى غدا نوبة صاحب الدار ، ولا خوف علينا ولا حزن ، حيث كان خلاص ذمتنا حسن . هذا ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على نبيه وآله وصحبه وســلم .

الفصل العاشر

(فى فعل الخير بمدينة باريس)

اعلم أن غالب الناس ببلاد الافرنج وسائر البلاد التى تكثر الصناعة والتجارة فيها يعيشون من كسب أيديهم ، فاذا حصل للانسان منهم مانع كمرض أو نحوه ، فقد معيشته واضطر الى أن يعيش من غير كسب يده ، كأن يتكفف الناس ، أو نحو ذلك : فشرعت المارستانات المعدة لفعل الخير ، حتى ان الانسان لا يسأل ما فى أيدى الناس ، وكلما كثرت صنائع بلدة وكثر كسبها كثرت أهاليها فاحتاجت الى مارستانات أكثر من غيرها ، ومعلوم أن مدينة « باريس » من أعمر المدن وأكثرها صناعة وتجارة ، فلذلك كثرت مارستاناتها وجمعيات فعل الخير بها سادة لخلل شح أفراد أهلها وبخلهم ، لما تقدم أنهم بمعزل عن الكرم من العرب ، فليس عندهم حاتم طى ، ولا ابنه عدى . ولم يخرج من بلادهم معن بن زائدة الشهير بالحلم والندى الذى قال فيه الشاعر :

يقولون : معن لا زكاة لما له ... وكيف يزكى المال من هو باذله
اذا حال حول لم يكن فى دياره ... من المال الا ذكره وجمائله
تراه اذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت نائله
هو البحر من كل النواحى أتيته ... ولجته المعروف والبر ساحله
اذا مر بالوادى فتبكى تلاله ... عليه وبالنادى فتبكى أرامله
تعود بسط الكف حتى لو انه ... أراد انقباضا لم تطعه أنامله
ولو كان ما فى كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

ولم يسمع في بلادهم عند ملوكهم ووزرائهم شيء ولو يسيراً مما يحكى عن بني العباس والبرامكة أصلا ، فالملك المنصور المشهور بالدوانقي (١) أكرم الكرماء بالنسبة اليهم ، نعم ان البلاد المتحضرة يقل اكرامها ، وأيضا يرون أن اعطاء القادر على الشغل شيئا فيه اعانة له على عدم التكسب •

وفي مدينة باريس ديوان لتدبير المارستانات ، واهله خمس عشرة نفسا للمشورة العامة ، وفي هذا الديوان خمس نظارات : النظارة الأولى : لمباشرة المارستان • النظارة الثانية : لمباشرة مهمات المارستان ، والخدمة للمرضى والعقاقير العامة • النظارة الثالثة : مباشرة الأوقاف • النظارة الرابعة : مباشرة الفقراء في بيوتهم واعانتهم • النظارة الخامسة : مباشرة مصاريف المارستان وتوابعها •

ولا يدخل الانسان المارستان الا اذا أثبت مرضه • يقول الحكماء: ومن قام من مرضه في المارستان وأراد أن يخرج منه قبل أن يتم شفاؤه وترجع له قوته أخذ من الوقف بعض شيء يستعين به على قوته ، حتى يمكنه الرجوع الى أشغاله •

وأعظم مارستان « بباريس » المارستان المسمى : « أوتيل ديو يقرب أن يكون معناه « بيت الله » وهو موقوف على المرضى والجرحى ولا يدخل فيه الأطفال ولا أرباب الداء العضال ، ولا المجانين ولا النفساء ولا أرباب الأمراض المزمنة ، ولا المبتلى بالافرنجي ، فان كل داء من هذه الأشياء له ما رستان خاص •

ومن المارستانات الشهيرة في « باريس » مارستان يسمى « سنلويز » وهو معد لأرباب الأمراض المزمنة ، ولأرباب الدمامل والقوبة ، والحكة ، والجرب ، ونحو ذلك •

---

(١) المنسوب الى (دوانق) ، وهي جمع (دانق) كصاحب ، وهو سدس الدرهم •

وفي باريس مارستان للقطاء ، يعني الأطفال الذين يلتقطونهم من الطرق فيدخل فيه الذين يهملهم أهلهم كأولاد الزنا ونحو ذلك .

« وبباريس » مارستان أيضا للأيتام ، وفيه يدخل الأولاد الفاقدون لأهاليهم ، وهو موقوف على نحو ثمانمائة ذكر وأنثى . فالذكور فيه في جهة ، والاناث في أخرى . ويباشر هذا المارستان عدة راهبات تسمى عندهم : أخوات الاحسان ، ويتعلم صغار هذا المارستان فيه القراءة والكتابة والحساب ، ولهذا المارستان ديوان يدبره فلا يوضع الصغير في هذا المارستان الا بأمر هذا الديوان ، واذا بلغ الانسان احدى عشرة سنة في السن فانه يخرج باذن أهل ذلك الديوان من هذا المارستان ، ويسكن عند معلم صنعة ومصرفه يخرج من وقف المارستان ، ولمعلم الصنعة أن يتبنى الصغير ، أي يأخذه وينزله منزلة ابنه ، ولكن بشرط أن يثبت لأهل ذلك الديوان يساره وفضله وحسن حاله .

ومن جملة مارستانات « باريس » مارستان موقوف لتلقيح الجدري بوضع البقرى .

ومنها مارستانان يسميان « مارستاني الشيخوخة والهرم » فأحدهما للذكور ، والآخر للنساء ، ومنها مارستان لأصحاب الداء العضال ، موقوف على أربعمائة وخمسين مريضا ذكرا وخمسمائة وعشرين مريضة » .

ومنها : مارستان العميان ، من أهل « باريس » أو غيرها من العمالات ، فلهم فيه الأكل والشرب ، وسائر ما يحتاجون اليه في تعليمهم ونحو ذلك .

ومنها : مارستان المجانين ، وفيه (قشلة) (١) عظيمة تسمى مارستان السقط ، وفيه يوضع مجاريح الحروب ومقاطيع الأيدى

---

(١) القشلة : المستشفى .

أو الأرجل أو نحو ذلك ، وهو من أنظف وأعظم المارستانات ، وفيه ستة عشر طبيبا ، وجرائحيا ، وستة عقاقيرية لصناعة الأدوية ٠

ويوجد في « باريس » زيادة عن هذه المارستانات ديوان عام يسمى « ديوان الاحسان » المقصود منه تكميل الخير الذى لا يمكن في المارستانات ، كما اذا أحرقت تجارة تاجر أو انكسر ، فانه يجبر من هذا الديوان بشروط معلومة ٠

وفى كل خط « بباريس » ديوان احسان ، والاحسان فيه قسمان : احسان حالى واحسان حولى ، فالأول يعطى للفقير الذى وقف حاله أو حدث له ما يعطله ، والثانى لمن به حالة دائمة تمنعه من الشغل ٠ ومن فعل الخير بمدينة « باريس » أنه يوجد بشاطئ نهرها علب وحوائج بها روائح لتشميم الغريق والمغمى عليه والجريح ونحو ذلك ليفيق ٠ ويوجد أيضا بهذه المواضع عدة رجال من أهل الخبرة ، لينهضوا لاسعاف من وقعت له حادثة عارضة ٠

ومن هذا كله يتبين أن فعل الخير بمدينة « باريس » أكثر منه في غيرها بالنسبة للجملة أو للمملكة ، لا لكل واحد على حدته فانه قد يشاهد في طرقها أن بعض الناس الذين لا يذهبون الى المارستانات الموقوفة ونحوها يقع في وسط الطريق من الجوع ، وربما تراهم ينهرون السائل ، ويردونه خائبا ، زاعمين أنه لا ينبغى السؤال أبدا ، لأنه اذا كان السائل قادرا على الشغل فلا حاجة الى السؤال ، وان كان عاجزا عنه فعليه بالمارستانات ونحوها ، ولأن السائلين عندهم أصحاب حيل في تحصيل الأموال في غالب الأحوال ، حتى انهم يتشكلون في صورة المجاريح ونحوهم ، ليشفق الناس عليهم ويرقوا لحالهم ٠

ومن فعل الخير أنهم يجمعون عند الحاجة أشياء لمن نكبه الزمان حتى يصير بها غنيا ، فمن ذلك أنهم جمعوا لأولاد « الجنرال ني » نحو مليونين من الفرنكات يعنى ستة ملايين من القروش ٠

الفصل الحادى عشر

(فى كسب مدينة باريس ومهارتها)

اعلم أن المركوز فى أذهان هؤلاء الطوائف محبة المكسب والشغف به ، وصرف الهمة اليه بالكلية ، ومدح الهمة والحركة وذم الكسل والتوانى ، حتى ان كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم فى الذم هى لفظة الكسل والتنبلة ، وسواء فى محبة الأشغال العظيم والحقير ، ولو حصل من ذلك مشقة أو مخاطرة بالنفس فكانهم فهموا قول الشاعر :

حب السلام يثنى عزم صاحبه ... عن المعالى ، ويغرى المرء بالكسل
فان جنحت اليه فاتخذ نفقـا ... فى الأرض أو سلما فى الجو واعتزل
ودع غمار العلا للمقدمين على ... ركوبها ، واقتنع منهن بالأمل

الى أن قال :

فانما رجـل الدنيا وواحدها ... من لا يعول فى الدنيا على رجل

ثم ان أعظم التجارات وأشهرها فى «باريس» معاملات الصيارفة . والصيارفـة قسمان : صيارفـة المملكة أو (الميرى) ، وصيارفـة « باريس » ، ووظيفة صيارفة الدولة بالنسبة للتجـارة أن يضـع الناس ما يريدن وضعه ، ويأخذوا كل سنة ربحه المعين فى قانونهم ، فلا يعد عندهم هذا الربح ربا الا اذا زاد عما فى القانون . وللانسان

أن يأخذ ما وضعه من المعاملة عند صيارفة الدولة متى أراد . ومثل ذلك صيارفة « باريس » فانهم يأخذون ويعطون الأموال بالمرابحة ، وهم يعطون الربح أزيد مما تعطيه صيارفة بيت المال الذين هم صيارفة المملكة ، ولكن المال الموضوع عند صيارفة المملكة آمن من الموضوع عند صيارفة المدينة ، وذلك لأن صيارفة المدينة يفلسون ، وأما صيارفة الدولة فان ما يأخذونه يكون دينا على الدولة ، والدولة دائما موجودة .

ومن أمور المعاملات المهمة عند أهل « باريس » : جمعية تسمى « الشركاء في الضمانة » فانها تضمن لمن يدفع لها كل سنة قدرا هينا مخصوصا سائر ما يتلف في بيته بحادثة قهرية ، كما اذا احترق بيته أو حانوته أو نحو ذلك فانها ترجعه له كما كان ، وتدفع له قيمته .

وفي مدينة باريس معامل سلطانية ومعامل غير سلطانية : فمنها معامل المعادن كأشغال الفضة والذهب واتخاذ الآنية منهما ، ومنها معامل الصيني (والفرفوري) (١) ومعامل الشمع الاسكندراني ، ومعامل الصابون والقطن والجلود المدبوغة ، وشغل السختيان (٢) ، ونحو ذلك ، وصناعتهم تعظم جودتها شيئا فشيئا ، حتى انهم كل نحو ثلاث سنوات يعرضون أشغالهم على رءوس الأشهاد ، ويظهرون ما اخترعوه وما كملوه .

وفي باريس عدة خانات عظمى ، توجد فيها سائر المبيعات ، ووكائل وحوانيت وبيوت للتجارة أو الصناعة مكتوب على واجهتها اسم التاجر واسم تجارته . وبعض الأحيان قد يكتب اسم المتجر ، ولا يمكن أن يشرع الانسان في التجارة الا اذا دفع لبيت المال شيئا

---

(١) نوع من الصيني .

(٢) نوع من الجلد .

ولو هينا ، فيأخذ (نيشانا) علامة على الاذن له في التجارة ، فيحتاج أن يكون معه (النيشان) ، وعلى تجارته ٠

وللتجارة مكتب مخصوص يسمى مكتب التجارة ، يتعلم فيه التلامذة علم التجارة ، وعلم تمييز صفات أنواع الاشياء المبيعـة ، ومعرفة الأثمان والقيم ٠

وفى هذا المكتب خمس عشرة مدرسة ، وفيه تلامذة من اقاليم عديدة ، ويمقتضى قانون ذلك المكتب أنه بدفع القدر المعين يقبل من أراد الدخول للتعليم من سائر الأمم ٠

ومن الأمور التى تعين على النجامة والكسب تعمير طرق البر والبحر ، فمن ذلك صناعة الخلجان والقوارب التى تسير بالدخان ونصب القناطر،ونصب دواوين تسفير العربات الكبيرة (والتليغراف) وهى الاشارة ، ونصب البريد بالساعى ، والبريد بالخيل وغير ذلك ٠

فانظر الى مدينة « باريس » فان حولها أربعة خلجان تأتى منها المتاجر ، وفى نهر السين تسير قوارب على صورة العربات ، وقوارب تمشى بالنار سريعـة السير ، وبمدينـة « باريس » جملة أنواع من العربات مختلفة الشكل والاسم والسير والاستعمال ، فمنها عربات معدة لوسق الأمتعة من « باريس » الى البلاد البرانية ، (ص ١٢٥) وتسمى « رولاجة » (١) ومنها جنس معد لوسقه بالناس ليسافروا فيه ، ويسمى « الدلجنس » ومنها عربات صغيرة للسفر الى المحال القريبة من « باريس » تسمى « كوكو » (٢) (بضم الكافين) ويدفع فيها على كل رأس قدر معلوم ، كالسفر فى السفن ٠ وفى « باريس » عربات تستأجر الى أجل معلوم ، كيوم أو شهر أو سنة ، والعربات العاديـة فى « باريس » هى : الفيـاكرة » وهى ما فيها مقعـد فيه

---

(١) Roulage.

(٢) Coucou.

سدلتان متقابلتان ، تسعان ستة أنفس ، ولها حصانان يسحبانها « والكيريولة » وهى نصف « الفياكرة » فلها سدلة واحدة : وركوب « الفياكرة » (١) أو « الكيريولة » تكون أجرته بالساعة ، أو يستأجر من محل الى محل آخر ، وأجرة محدودة لاتزيد ولا تنقص ، ووجودها فى سائر طريق « باريس » أكثر من وجود الحمير فى طريق القاهرة. وقد تجددت الآن عربات كبيرة تسمى « الأمنيبوسة » (٢) معناها : لكل الخلق ، وهى عربات كبيرة تسع كثيرا من الخلق ، مكتوب على بابها أنها تمشى الى الحارة الفلانية ، فكل الناس الذاهبين الى حارة واحدة يركبونها ، ويدفع كل منهم قدرا معينا،وهى موجودة فى أمهات خطوط « باريس » ومن العربات جنس ينقل أمتعة البيوت ، ومنها عجلات البياعين ويوسقونها ، ويدورون بها فى الطريق ليبيعوها ، وهذه العجلات قد يسحبها حصان ، وقد يسحبها حمار ، وقد يسحبها شخص وحده أو مع كلبه ، وبها أجناس أخر من العجلات لحمل الحجارة والتراب وغير ذلك .

وأما البريد المسمى عند الفرنسيس « البنسطة » فانه من أهم المصالح النافعة فى التجارات وغيرها ، يسهل فيه اخبار الغير بواسطة المكاتبات التى تذهب عاجلا ، ويأتى ردها فى أسرع ما يكون . وتدبيرها بكيفيتها التى هى عليها من أعظم ما يمكن ، فان المكاتيب التى تبعث فى البلد وأ العمالة تصل الى صاحبها من غير شك ، لأن سائر نمرة البيوت مكتوب عليها بالرقم عددها المسمى « النمرة » فبها يمتاز البيت عما عداه ، والمكتوب الذى تبعثه الانسان تضعه فى محل المكاتيب الموضوع فى كل حارة ، فيأتى الساعى ويأخذه ، فيصل المكتوب الى الحارة الأخرى ، ويأتى رده فى يومه .

ثم ان الفرنساوية يحترمون أمور المراسلات غاية الامكان ،

---

(١) Fiacre

(٢) Omnibus

فلا يمكن لانسان أن يفتح مكتوبا معنونا باسم آخر ولو كان متهما بشيء • ولما كان احترام المراسلات بباريس على هذه (ص ١٢٦) الحالة كثرت الرسائل بين الأحباب والأصحاب ، خصوصا بين العشاق ، لأمن الانسان على مكتوبه من أن يفتحه غير المرسل اليه ، المعنون باسمه ، واعلام العشق بين العاشق ومعشوقته يكون بالمراسلة ، وبها أيضا يحصل الوعد بالمواصلة • وفى باريس محل لارسال المعاملات والحوائج مع الساعى أيضا ، من غير خوف أبدا • ومن الأمور النافعة فى التجارات (الجورنالات) فيكتبون فيها كثيرا من البضاعة النافعة أو الجيدة الصنعة ، ويمدحونها ، ليروجوا السلع ، وليعلموا الناس بها ، وصاحب البضاعة يدفع لهم شيئا فى نظير ذلك ، وسيأتى الكلام عليها ان شاء الله تعالى • وقد يطبع التاجر الذى يريد ترويج سلعته عدة أوراق صغيرة ، ويرسلها مع خدم فى سائر البيوت ، ولسائر المارين ، بالطرق ويفرقها عليهم مجانا ، ففى هذه الأوراق يذكر اسمه واسم دكانه ، وما عنده من المبيع ، ويعين القيمة لسلعته •

وبالجملة ففى مدينة باريس يباع سائر ما يوجد فى الدنيا سواء كان خطيرا أو حقيرا ، ومن أعظم الأشياء دكاكين العقاقيرية ، فيها توجد سائر الأدوية مجهزة ، وسائر العقاقير التى على وجه الأرض المعروفة الاسم والخاصية •

وسائر الخلق « بباريس » يحبون الكسب والتجارة ، سواء الغنى والفقير ، حتى ان الصغير الذى لا يمكنه التكلم الا بالأشياء الصغيرة اذا أعطيته فلسا يفرح به ويصفق بيديه قائلا • ما معناه بالعربية : كسبت وقنيت : ولولا أن كسبهم مشوب فى الغالب بالربا لكانوا أطيب الأمم كسبا ، واذا كسدت تجارة أحدهم كما هو غالب فى تلك البلاد فسد حاله ، وآل أمره الى تطلب ما فى أيدى الناس ، وربما أخذ معه مكتوبا من أحد الكبار يدل على كساد حاله ، وأنه

يستحق الاعانة ، ويكثر وقوع مثل هذا الأمر فى هذه المدينة وان كثر أخذها وعطاؤها •

وتداول الأمطار والرياح لا يمنع الانسان منهم عن الخروج الى شغله ، يقولون بلسان حالهم : اليد الفارغة تسارع الى الشر ، والقلب الفارغ يسارع الى الاثم •

وأهل « باريس » أغنياء جدا • حتى ان المتوسط منهم أغنى من تاجر عظيم من تجار القاهرة ، فلا يرضون قول الشاعر :

ولا فخر الا بالنوال وبالعطا   وليس بجمع المال عز ولا فخر

بل يحرصون على الأموال ، ويسلكون سبيل الحرص زاعمين أنه يزيد فى الأرزاق ، ولا يقتدون بقول الشاعر :

وليس يزاد فى رزق حريص   ولو ركب العواصف كى يزادا

وقد يوجد بها من أهالى الحرف الدنيئة من ايراده كل سنة أبلغ من مائة ألف فرنك ، وذلك من كمال العدل عندهم ، فهو المعول عليه فى أصول سياساتهم،فلا تطول عندهم ولاية ملك جبار أو وزير اشتهر بينهم أنه تعدى مرة وجار • ولاشك أنه تأسس فى قلوبهم قول الشاعر :

والملك الجبـــار والمنيـــع   ماعنده هـاد • ولا شـفيع
رعية الجبار مرعى الجـرب   والملك العـادل قصف الخصب

وهذا لا يمنع من أنهم يدفعون (الميرى) عن طيب خاطـر ، لا أنهم يرون أن الخراج عمود الملك اذا دفع كل انسان منهم ما هو عليه قـادر ، فمـال (الميرى) هو قوام صورة الممـالك ، واحسان مصرفه فى استحقاقه خير مما هنالك ، قال الشاعر :

والمـال أس لقيـام الصوره   وخير منـه صالـح المشوره

ولما كانت رعيتهم رائعة كانت الدولة عندهم لها ايراد سنوى عظيم ، فان ايراد الدولة الفرنساوية كل سنة نحو تسعمائة وتسعة وثمانين مليونا من الفرنكات .

ومن جملة أسباب غنى الفرنساوية أنهم يعرفون التوفير ، وتدبير المصاريف ، حتى انهم دونوه ، وجعلوه علما متفرعا من تدبير الأمور الملكية،ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى،فمن ذلك عدم تعلقهم بالأشياء المقتضية للمصاريف ، فان الوزير مثلا ليس له أزيد من نحو خمسة عشر خادما ، واذا مشى فى الطريق لا تعرفه من غيره فانه يقلل أتباعه ما أمكنه داخل داره وخارجها وقد سمعت أن قريب ملك الفرنسيس المسمى : الدوق « درليان » وهو الآن السلطان الذى هو من أعظم الفرنسيس مقاما ، وأكثرهم غنى ، له من الأتباع وسائر من طرفه من العساكر ونحوها (كالبستانجية) والخدم وغير ذلك نحو أربعمائة نفس لا غير ، والفرنساوية يستكثرون ذلك عليه فانظر الفرق بين باريس ومصر ، حيث ان العسكرى بمصر له عدة خدم .

الفصل الثاني عشر

(في دين اهل باريس)

قد تقدم لنـــا في الشرطة أن دين الدولة هو دين النصـــارى « القاثوليقية » وقد بطـــل هذا الشرط بعد الفتنـــة الأخـيرة ، وهم يعترفون للبابا الذى هو ملك رومة بانه عظيم النصارى وكبير ملتهم ، وكما أن الدين القاثوليقى هو دين الدولة الفرنساوية كذلك هو دين غالب الناس عندهم ، وقد يوجد « بباريس » الملة النصرانية المسماة : « البروتستانية » وغيرها ، ويوجد بها كثير من اليهود المستوطنين ، ولا وجود لمسلم مستوطن بها ٠

وقد أسلفنا أن الفرنســاوية على الاطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم ، فهم داخلون في اسم الكتابيين ، فلا يعتنون بما حرمه دينهم ، أو أوجبه ، أو نحو ذلك ففي أيام الصيام في « باريس » لا ينقطع أكل اللحم في سائر البيوت ، الا ما ندر ، كبعض القسوس ، وبيت ملك الفرنسيس القديم ، وأما باقى أهل المدينة فانهم يستهزئون بذلك ولا يفعلونه أبدا ، ويقولون : ان سائر تعبدات الأديان التي لا نعرف حكمتها من البدع والأوهام ٠ ولا تعظم القسوس في هذه البلاد الا في الكنائس عند من يذهب اليهم ، ولا يسأل عنهم أبدا ، فكأنهم ليســوا الا أعـداء للأنوار والمعارف ٠ ويقال : ان غالب ممالك الافرنج مثل « باريس » في مادة الأديان ٠ ثم ان « مسيو دساسى » لما اطلع على ذلك كتب عليه ما نصه : قولك ان الفرنساوية ليس لهم دين البتة ، وانهم ليسوا

نصارى الا بالاسم فيه نظر ، نعم ان كثيرا من الفرنساوية خصوصا من سكان « باريس » ليسوا نصارى الا بالاسم فقط لا يعتقدون اعتقادات دينهم ، ولا يتعبدون بعبادات النصرانية ، بل هم فى أعمالهم لا يتبعون الا أهواءهم ، تشغلهم أمور الدنيا عن ذكر الآخرة ، تراهم ما دامت حياتهم لا يهتمون الا باكتساب الأموال بأى وجه كان ، واذا حضرهم الموت ماتوا كالبهائم ، ولكن فيهم أيضا من يقيم على دين آبائه يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويعمل الصالحات ، وهم طائفة لا تحصى من الرجال والنساء ، ومن العوام والخواص ، بل ومن المشهورين بفضل العلم والأدب ، غير أنهم فى ورعهم وتقاهم على مراتب شتى : منهم من يشارك عامة الناس تصرفاتهم ، ويحضر معهم فى محافل اللذات أعنى « السبكتاكل » « والبال » ومجامع الأغانى ، ومنهم المتقشفون المعرضون عن كل ما تشتهيه الأنفس ، وهؤلاء أقل عددا ، وان دخلت كنائسنا أيام الأعياد المعظمة ظهر لك صحة قولى .

هكذا انتهت عبارته والحامل له على ذلك : كونه من أرباب الديانة ، وعددهم نادر ولا حكم له .

ومن الخصال العادية المهولة ببلاد الفرنسيس أو بلاد النصارى « القاثوليقية » : عدم الاذن بزواج القسيسين على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ، فان عدم زواجهم يزيدهم فسقا على فسقهم .

ومن الخصال الذميمة : أن القسيسين يعتقدون أنه يجب على العامة أن يعترفوا لهم بسائر ذنوبهم ، ليغفروها لهم ، فيمكث القسيس فى الكنيسة على كرسى يسمى كرسى الاعتراف ، فسائر من أراد أن تغفر ذنوبه يذهب الى كرسى الاعتراف ، داخل باب بينه وبين القسيس حائل كالشبكة ، فيجلس ، ثم يعترف قدامه بذنوبه ، ويستغفره ، فيغفر له . وقد عرف عندهم أن أكثر من

يدخل الكنيسة أو يذهب الى الاعتراف يكون من النساء والصغار ، وهذا موافق لقول بعض شعراء العرب :

ان من يدخل الكنيسة يوما   يلق فيها جآذرا وظباء

ودرجة القسيسية عندهم مختلفة فأولهم الكردينال وهو بعد « البابا » فى الرتبة ، وذلك أن البابا قبل توليته يشترط أن يكون « كردينالا » ، ثم بعده « المطران » ثم بعده « الأسقف » ثم « الخورى » ثم « نائب الخورى » ثم « الشماس » •

وعند الفرنساوية أعياد دينية متنقلة : يعنى لا تقع فى يوم معين كل سنة ، بل هى دورية ومرتبة فى الغالب على وقوع عيد الفصح •

فمن أعيادهم الغريبة « عيد الرفاع » وقد تقدم ، ومنها عيد ظهور السيد المسيح ، ويسمى عند الفرنسيس : عيد الملوك ، وذلك أن كل عائلة تصنع فطيرة عظيمة ، وتضع فيها حبة فول فى عجينها ، ويقسمون الفطيرعلى الندامى ، فكل من جاءت حبة الفول فى نصيبه فهو الملك ، فان جاءت فى نصيب رجل فانه يسمى باسم الملك ، ويخاطب فوق المائدة وتمام الليلة بخطاب الملوك ، ثم يختار من النساء امرأة يجعلها الملكة ، فتخاطب أيضا بذلك الخطاب ، وان جاءت الفولة فى نصيب امرأة فانها أيضا تختار من الحاضرين شخصا كالزوج لها ، وتطلق عليه اسم الملك ، فيكون سائر اكرام الليلة للملك والملكة ، برسوم خاصة ، وقوانين مألوفة ، وهذه الكيفية تصنع فى سائر البيوت فى مدينة « باريس » حتى فى بيت ملك الفرنسيس •

ومن جملة بدع القسيسين أنهم يصنعون فى عيد القربان موكبا ويلبسون فيه حللا مطرزة ، ويدورون المدينة بشىء يسمونه « البونديو » وكلمة « البونديو » مركبة من كلمتين : الأولى : « بون » ومعناها : طيب ، أو عظيم ، والثانية « ديو »

ومعناها : الاله ، فكأنهم يقولون ان الاله حاضر فى الجحفة (١)، التى بين أيدى القسوس ، والمراد عندهم « بالبونديو » عيسى عليه السلام • والفرنساوية يعرفون أن هذه الأمور من باب الهوس الذى يدنس بلادهم ، ويزرى بعقول أهلها • غاية الأمر أن العائلة السلطانية كانت تعين القسيسين على هذه الأمور ، فتمتثل الرعية لذلك مع غاية الحط والتشنيع •

وللقسيسين بدع لا تحصى • وأهل باريس يعرفون بطلانها ، ويهزءون بها ، ولهم أعياد آخر لا يسعها هذا الكتاب •

ثم ان لكل انسان من الفرنساوية عيدا وهو يوم مولد القديس الموافق له فى اسمه فاذا كان انسان اسمه بولص مثلا فان عيده يكون عيد « مارى بولص » ، فترى كل انسان اسمه « بولص » يصنع وليمة ويشهر عيده ، وفى عيد الانســان يهادونه بأنواع الأزهار •

---

(١) الجحفة : بقية ماء فى حوض •

الفصل الثالث عشر

(فى ذكر تقدم أهل باريس فى العلوم والفنون والصنائع ، وذكر ترتيبهم ، وايضاح ما يتعلق بذلك)

الذى يظهر لمن تأمل فى أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعة فى هذا العصر بمدينة « باريس » أن المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها بهذه المدينة ، وأنه لا يوجد من حكماء الافرنج من يضاهى حكماء«باريس» بل ولا فى الحكماء المتقدمين كما هو الظاهر أيضا ، غير أن صاحب النقد السديد قد يقول : ان سائر الفنون العلمية التى يظهر أثرها بالتجارب ، معرفة هؤلاء الحكماء بها ثابتة ، واتقانها عندهم لا نزاع فيه ، كما يشهد لذلك قول بعض أجلة الحكماء : « الأمور بتمامها ، والأعمال بخواتيمها ، والصنائع باستدامتها » .

وأما أغلب العلوم والفنون النظرية فانها معروفة لهم غاية المعرفة ، ولكن لهم بعض اعتقادات فلسفية ، خارجة عن قانون العقل ، بالنسبة لغيرهم من الأمم ، غير أنهم يموهونها ، ويقوونها ، حتى يظهر للانسان صدقها وصحتها ، كما فى علم الهيئة مثلا ، فانهم محققون فيه : وأعلم ممن عداهم بسبب معرفتهم بأسرار الآلات المعروفة من قديم الزمان ، والمخترعة له .

ومن المعلوم أن المعرفة بأسرار الآلات أقوى معين على الصناعات غير أن لهم فى العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ، ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الانسان أن

ردها ، وسيأتي لنا كثير من بدعهم ، وننبه عليها في محالها ان شاء الله تعالى ٠

وانما نقول هنا : ان كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع ، فسائر كتب الفلسفة يجرى فيها الحكم الثالث ، من الخلاف الذي ذكره صاحب متن السلم في الاشتغال بعلم المنطق ، فحينئذ يجب على من أراد الخوض في لغة الفرنساوية المشتملة على شيء من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والسنة ، حتى لا يغتر بذلك ، ولا يفتر عن اعتقاده ، والا ضاع يقينه ، وقد قلت جامعا بين مدح هذه المدينة وذمها :

أيوجد مثل « باريس » ديار … شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح … أما هذا وحقكم عجيب !

ومن جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم في العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر ما يكملها ، فان لغتهم لا تحتاج الى معالجة كثيرة في تعلمها ، فأي انسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع أي كتاب كان ، حيث أنه لا التباس فيها أصلا ، فهي غير متشابهة ٠ واذا أراد المعلم أن يدرس كتابا لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبدا ، فان الألفاظ مبينة بنفسها ٠ وبالجملة فلا يحتاج قارىء كتاب أن يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر ، بخلاف اللغة العربية مثلا ، فان الانسان الذي يطالع كتابا من كتبها في علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة ، ويدقق في الألفاظ ما أمكن ، ويحمل العبارة معاني بعيدة عن ظاهرها ٠

وأما كتب الفرنسيس فلا شيء من ذلك فيها ، فليس لكتبها شراح ولا حواش الا نادرة ، وانما قد يذكرون بعض تعليقات خفيفة تكميلا للعبارة بتقييد أو نحوه،فالمتون وحدها من أول وهلة كافية في افهام مدلولها ، فاذا شرع الانسان في مطالعة كتاب في أي علم كان تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكة الألفاظ ،

فيصرف سائر همته فى البحث عن موضوع العلم ، وعن مجرد المنطوق والمفهوم ، وعن سائر ما يمكن انتاجه منها ، وأما غير ذلك فهو ضياع مثلا اذا أراد انسان أن يطالع علم الحساب ، فانه يفهم منه ما يخص الأعداد من غير أن ينظر الى اعـراب العبـارات ، واجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات ، والاعتراض بأن العبـارة كانت قابلة لتجنيس وقد خلت عنـه ، وأن المصنف قدم كذا ، ولو أخـره كان أولى ، وأنه عبـر بالفـاء فى محـل الواو والعكس أحسن ، ونحو ذلك ، ثم ان الفرنسيس يميلون بالطبيعة الى تحصيل المعارف ، ويتشوقون الى معرفة سائر الأشياء ، فلذلك ترى أن سائرهم له معرفة مستوعبة اجمالا لسائر الأشياء ، فليس غريبا عنها ، حتى انك اذا خاطبته تكلم معك بكلام العلماء ، ولو لم يكن منهم ، فلذلك ترى عامة الفرنساوية يبحثون ، ويتنازعون فى بعض مسائل علمية عويصة ، وكذلك أطفالهم فانهم بارعون للغاية من صغرهم ، فالواحد منهم كما قال الشاعر :

عشق المعانى الغر وهو مراهق   وافتض أبكار الفنـون وليـدا

فانك قد تخاطب الصغير الذى خرج من سن الطفولية عن رأيه فى كذا وكذا ، فيجيبك بدلا من قوله لا أعرف أصل هذا الشىء بما معناه « الحكم على الشىء فرع عن تصوره » ونحو ذلك ، فأولادهم دائما متأهلون للتعلم والتحصيل ، ولهم تربية عظيمة ؛ وهذا فى الفرنسيس على الاطلاق .

والعادة أنهم يزوجون أولادهم قبل تمام تعلمهم ، وهذا يكون غالبا فى عشرين الى خمس وعشرين سنة ، فقل منهم من كان فى سن العشرين ، ولم يبلغ درجة التدريس ، أو يتعلم صنعته التى يريد تعلمها ، غير أنه قد يمكث مدة طويلة ليتمكن من العلوم والفنون

غاية التمكن ، وهذا السن في الغالب تظهر به براعة الانسان وحسن طالعته ، كما قال الشاعر :

اذا ما أول الخطى أخطـــا   فما يرجى لآخره انتصـــار
اذا جاز الفتى عشرين عامـــا   وما بلغ المراد فـذاك عـــار

فكأن هذه (١) السن عند سائر الأمم سن انتهاء الناجب ، فانظر الى الأخضرى فانه في سن احدى وعشرين سنة قد نظم رسالة السلم وشرحها ، وكذلك العلامة الأمير فانه في دون العشرين بيسير صنف مجموعه فتورك (٢) على قول الأخضرى :

ولبنى احـدى وعشرين سـنه   معـذرة مقبـولة مستحسنه

بأنه وهو في دون ذلك السن ألف في أصعب من ذلك المقام . وما قلناه بالنسبة لأرباب المعارف من الافرنج .

وأما علماؤهم فانهم منزع آخر لتعلمهم تعلما تاما عدة أمور ، واعتنائهم زيادة على ذلك بفرع مخصـوص ، وكشـفهم كثيرا من الأشياء ، وتجديدهم فوائد غير مسبوقين بها ، فان هذه عندهم هى أوصاف العالم ، وليس عندهم كل مدرس عالما ، ولا كل مؤلف علامة ، بل لابد من كونه بتلك الأوصاف ، ولابد له من درجات معلومة ، فلا يطلق عليه ذلك الاسم الا بعد استيفائها والارتقاء ، ولا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس ، لأن القسوس انما هم علماء في الدين فقط ، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضا ، وأما من يطلق عليه اسم العالم فهو من له معرفة في العلوم العقلية ، التى من جملتها علم الأحكام والسياسات .

ومعرفة العلماء في فروع الديانة النصرانية هينة جدا ، فاذا

---

(١) في الأصل (هذا) .
(٢) تورك : اعتمد .

قيل في فرنسا : هذا الانسان عالم لا يفهم منه أنه عالم في دينه ، بل انه يعرف علما من العلوم الأخر [ى] ، وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى في العلوم عمن عداهم ، وبذلك تعرف خلو بلادنا ، عن كثير منها ، وأن الجامع الأزهر المعمور بمصر القاهرة ، وجامع بنى أمية بالشام ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع القرويين بفاس ، ومدارس بخارى ونحو ذلك كلها زاهرة بالعلوم النقلية ، وبعض العقلية كعلوم العربية ، والمنطق ، ونحوه من العلوم الآلية . والعلوم في مدينة باريس تتقدم كل يوم ، فهى دائما فى الزيادة فانها لا تمضى سنة الا ويكشفون شيئا جديدا ، فانهم قد يكشفون في السنة عدة فنون جديدة ، أو صناعات جديدة ، أو وسائط ، أو تكميلات ، وستعرف بعض هذا ان شاء الله تعالى .

ومما يستغرب : أن فى رجال العسكرية منهم من طباعه توافق طباع العرب العربا في شدة الشجاعة الدالة على قوة الطبيعة ، وشبة العشق الدالة ظاهرا على ضعف العقل ، مزاجهم كالعرب فى الغزل بالأشعار الحربية . وقد رأيت لهم كلاما كثيرا يقرب من كلام بعض شعراء العرب مخاطبا لمحبوبته بقوله :

ولقد ذكرتك والوغى بحر طغى ... والنقع ليل والأسنة أنجم
فحسبته عرسا ونحن بروضة ... وأنا وأنت بظله نتنعم

وقول الآخر :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها ... برقت كبارق ثغرك المتبسم

وقول صاحب لامية العجم :

لا أكره الطعنة النجلاء قد شفعت
برشقة من نبال الأعين النجل (١)

(١) عين نجلاء : واسعة جميلة .

ولا أهاب صفاح البيض تسعدنى
باللمح من خلل الأستار فى الكلل (١)
ولا أخل بغزلان تغازلنى
ولو دهتنى أسود الغيل بالغيل (٢)

ولنذكر لك مجامع العلماء ، والمدارس المشهورة ، وخزائن الكتب ، ونحو ذلك لتعرفَ به مزية الافرنج على غيرهم ·

فمن خزائن الكتب : الخزانة السلطانية ، وفيها سائر ما أمكن الفرنساوية تحصيله من الكتب فى أى علم كان بأى لغة كانت ، مطبوعة أو منسوخة ، وعدة ما فيها من الكتب المطبوعة أربعمائة ألف مجلد ، وفيها مبلغ عظيم من الكتب العربية الخزائنية التى يندر وجودها بمصر أو بغيرها ، وفيها عدة مصاحف لا نظير لها أبدا ، ثم ان المصاحف التى عند الفرنساوية فى خزائنهم غير مهانة ، بل هى مصونة غاية الصون ، وان كان عدم اهانتها حاصلا غير مقصود ، غير أن الضرر فى كونهم يسلمونها لمن يريد أن يقرأ القرآن منهم أو يترجمه أو نحو ذلك · وتوجد المصاحف للبيع فى مدينة « باريس » ، وبعضهم لخص من القرآن العظيم سائر الآيات التى اختارها للترجمة ثم ترجمها ، وضم اليها قواعد الاسلام ، وبعض شعبه ، وقال فى كتابه : انه يظهر له أن دين الاسلام هو أصفى الأديان ، وأنه مشتمل على ما لا يوجد فى غيره من الأديان ·

ومن خزائن الكتب : الخزانة المسماة خزانة « مسيو » وتسمى خزانة « الأرسنال » (٣) ومعنى « أرسنال » (ترسانة) وهى أعظم الخزائن بعد الخزانة السلطانية ، وبها نحو مائتى ألف مجلد

---

(١) الغيل : الشجر الكثير الملتف ، والغيل : جمع غيلة ، وهى القتل خدعة ·
(٢) الكلل : جمع كلة ، وهى الستر الرقيق ·
(٣) Arsenal la Bibliothéque.

مطبوعة ، وعشرة آلاف منسوخة ، وأغلب هذه الكتب كتب تاريخ وأشعار ، خصوصا الأشعار الايطاليانية ·

ومنها : خزانة « مزارينه (١) » ، وفيها خمسة وتسعون ألف مجلد مطبوعة ، وأربعة آلاف منسوخة ·

ومنها : خزانة « الأنسطيطوت » (٢) أى دار العلوم ، وفيها خمسون ألف مجلد ·

ومنها : خزانة المدينة ، وهى نحو ستة عشر ألف مجلد ، وهى دائما فى الزيادة ، وكتبها آداب ·

ومنها : خزانة بستان النباتات (٣) ، وفيها عشرة آلاف مجلد ، فى العلوم وفيهـــا خزانة الرصـــد السلطانى ، وفيهـــا كتب علم الهيئة ·

ومنها :خزانة مكتب الحكمة · ومنها خزانة « آكدمة (٤) الفرنسيس » وهى خمســة وثلاثون ألف مجلد ، وكل هذه خزائن موقوفة ·

وهناك خزائن مملوكة وهى كثيرة جدا : فمنها ما يشتمل على خمسين ألف مجلد ، ومنها للدولة نحو أربعين خزانة ، فأقل ما يوجد فى كل خزانة منها ثلاثة آلاف مجلد · وأكثرها فى الغالب خمسون ألف مجلد · وقد تنيف عن ذلك ولا حاجة لتسميتها هنا ·

ولكل انسان من العلماء أو الطلبة أو الأغنياء خزانة كتب على قدر حاله ، ويندر وجود انسان « بباريس » من غير أن يكون تحت

---

(١) Mazarine.

(٢) Bibliotheque de L'Institut.

(٣) La Bibliotheque du Jardin des plantes.

(٤) Bibliotheque de L'Academie Française.

ملكه شيء من الكتب ، لما أن سائر الناس تعرف القراءة والكتابة .
وسائر بيوت الأعيان فيها خلوة مشتملة على خزانة الكتب ، وعلى آلات العلوم وأدواتها ، وعلى التحف الغريبة التى تتعلق بالفنون ، كالأحجار التى يبحث عنها علم المعادن ونحو ذلك ، ففى « باريس » كثير من الخزائن التى يقال لها « خزائن المستغربات » (١) ، فيوجد بها ما تتشوق اليه نفوس الفضلاء ليستعينوا به على الغوص فى الطبيعيات كالمعادن والأحجار والحيوانات البرية والبحرية المحفوظة الجثة ، وسائر المواليد من الأحجار والنباتات ، وسائر الأشياء التى فيها آثار القدماء .

وتعلق هذه الأشياء بالعلوم أن الانسان يدرس ما يراه في الكتب ويقابله ، فان رآى فى كتاب تعريف حجر كذا ، وحيوان كذا . وكان الحجر أو الحيوان نصب عينه قابله مع الأوصاف المذكورة فى الكتب ، وأنفع الأشياء بالنسبة للطبيعيات بمدينة « باريس » البستان السلطانى المسمى « بستان النباتات » وفيه سائر ما يعرفه البشر من الأمور الخارجة من الأرض الغريبة ، ويزرع بأرضه سائر النباتات الأهلية التى يعالجون تطبعها عندهم بقوة الصناعة والحكمة ، فيطالع طلبة علم العقاقير والحشائش دروسهم ويقابلون ما فى الكتاب على ما يرونه ، ويأخذون فرعا من كل صنف من الحشائش يضعونه فى نحو ورقة ، ويكتبون اسمه وخاصيته . وفيه أيضا سائر مراتب الحيوانات الحية غريبة أو أهلية برية أو وحشية ، فيوجد بها نحو الدب الأبيض والأسود ، والسبع ، والضبع ، والنمورة والسنانير الغريبة ، والابل ، والجواميس ، وغنم بلاد التبت ، وزرافة سنار ، وفيلة الهند ، وغزلان البربر ، والأيل ، وبقر الوحش ، وأنواع القردة ، والثعالب ، وسائر أنواع الطيور المعروفة لهم ، وسائر هذه الحيوانات التى تراها حية بهذا البستان تراها

---

(١) يريد الطب البيطرى . "Les musées"

ميتة أيضا محشوة بالتبن ، يراها الانسان على صورة الحية ، كبو البقر الذى يصنعه الفلاحون بوادى مصر ٠

ويوجد فى هذا البستان أروقة مملوءة بالمعادن النفيسة ، وسائر الأحجار سواء كانت (غشيمة) (١) أو طبيعية ، فترى فيها مراتب الطبيعيات الثلاثة بسائر أجناسها وأنواعها وأصنافها ،ففيها كثير من الأشياء التى لا يمكن أن نجد لها أسماء عربية كحيوانات بلاد أمريكية أو نباتها وأحجارها ٠

وكل هذه الأشياء موضوعة بهذا البستان كالعينة أو الأنموذج من كل شىء ، ومكتوب على كل شىء اسمه باللغة الفرنساوية ، أو اللاطينية ٠ مثلا فى القاعة التى فيها سبع مكتوب عليها اسم السبع باللغة الفرنساوية وهو « ليون » وهكذا ٠

ومما وقع فى هذا البستان ما اشتهر أن بعض السباع قد مرض ، فدخل حارسه ، ومعه كلب فقرب الكلب من الأسد ، ولحس جرحه فبرىء الجرح ، فحصلت الألفة بين الأسد والكلب ، ودخلت محبة الكلب فى قلب الأسد فصار الكلب يتردد دائما على الأسد ، ويتملق اليه ، ويراه كأنه من أصحابه ، فلما مات الكلب مرض الأسد لفرقته ، فوضعوا معه كلبا آخر ، امتحانا لتطبعه ، فتسلى به عن الميت ، ولا زال معه ٠

وفى بستان النبات رواق يسمى « رواق التشريح » وفيه جميع « المومى » أى الجثث المحنطة المصبرة ونحوها من الجثث ٠

ويوجد بهذا الرواق بعض شىء من جثة المرحوم الشيخ سليمان الحلبى الذى استشهد بقتله للجنرال الفرنساوى « كليبر » وقتل

---

(١) غشيمة أى غفلا ، خاما ٠

الفرنساوية له فى أيام تغلبهم على مصر ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ٠

ومن محال العلوم الفلكية « الرصد السلطانى » (١) بمدينة « باريس » وهو من أغرب المراصد الموجودة على ظهر الدنيا ، وذلك أنه مبنى من مجرد الحجارة بغير دخول الحديد أو الخشب فى مادته ، وهو على شكل مسدس الأسطحة المتوازية القائمة الزوايا ، موجه الضلوع الأربعة الى الجهات الأربع : الشرق ، والغرب ، والشمال ، والجنوب ٠ وفى طرف الجهة الجنوبية صومعتان مثمنتا الزوايا ، وفى طرف الجهة الشمالية صومعة ثالثة مربعة وهى باب الرصد ، وفيه رسم الفرنسيس فى رواق فى الدور الأول خط نصف نهارهم ، فخرج ذلك الخط يقسم الرواق قسمين متساويين فمن هذا الخط يحسب الفرنساوية درجة الطول ، فينسبون اليه غيره من الأماكن المغايرة له فى السمت ، وقد أسلفنا ذلك موضحاً فى الفصل الأول من المقالة الثانية ، وارتفاع سطحه ثلاث وثمانون قدما فوق الأرض ، وهو منقسم الى عدة أروقة مناسبة لحاجة أشغال الفلك ، فمن هذه الأروقة ستة لها ممارق مفتوحة قطر كل ممرق ثلاثة أقدام ، وهو موضوع على كيفية يمكن معها رؤية السماء ، ويعين فيها على ما يحتاج الى رصده ، فترى منها النجوم وأنت فى المخادع التى تحت الأرض ، وفى هذه الأروقة امتحنوا ثقل الأجسام الطبيعية ، وميزان الهواء ٠ وفى هذا الرصد رواق كبير فيه آلات ، وعلى قلته آلة تعديل الرياح المسماة : « الانيمومتر » (٢) بها تقاس قوة الرياح وفيها طشت يسمى « دن العيار » يعدل به ماء المطر الذى ينزل كل سنة ٠

ومخادع هذا الرصد هى داخلة فى الأرض التى عمقها يساوى سمك حيطان الرصد ، والى هذه المخادع ينزل بدرج على الدوران

---

(١) L'Observatire Royal.

(٢) Anémomètre.

والانعطاف ، كدرج المنارة ، وعدة درجها ثلثمائة وستون ، ووظيفة هذه المخادع أنها قد تفيد الطبائعية والكيماوية أن يصنعوا بها تجاربهم بأن يجمدوا فيها المائعات ، ويبردوا بها الأجسام ، ليعرفوا مزاج الأهوية ، وفيها رواق يسمى « رواق المناجاة » أو رواق الأسرار وذلك أن فيه أمرا عجيبا من قرع الصوت للأذن ، أى وصوله بالهواء اليها ، وذلك أن بالرواق عمودا يقابله عمود آخر ، فاذا وضع الانسان فمه على العمود ، وأسر بكلام فانه يسمعه الانسان الذى بالعمود الآخر ، ولا يسمعه من يقرب منه ، وهذه الأمور يفهمها من له المام بخاصية الصوت ٠

ومن المحال العلمية بمدينة باريس موضع يقال له : « الكنسروتواز » (بضم الكاف ، وسكون النون ، وكسر السين ، وسكون الراء ، وفتح الواو ، وسكون التاء) كلمة فرنساوية معناها المخزن أو المحفظ ، أو نحو ذلك ، وفى هذا المحل جميع الآلات سواء العظيمة وغيرها ، خصوصا الآلات الهندسية ، كآلات الحيل ، وتحريك الأثقال ، ويزعم الفرنساوية أنه ليس فى الدنيا نظير هذا المخزن ، وفى هذا المحل يرد الصدى صوت الشخص برد عجيب ٠

ثم انه يكثر بباريس مدارس سائر العلوم والفنون والصنائع ، وقد سلف الكلام على اعتناء الفرنساوية بالحكمة يعنى علم الطب ولهم فيها مدارس كثيرة ٠

ولنذكر هنا محال العلماء ومراتبهم فنقول : ان العلماء فى مدينة « باريس » لهم مجامع عظيمة تسمى بأسماء مختلفة ، فمنها ما يسمى : « أكدمة » ، ومنها ما يسمى : مجمعا أو مجلسا ، « الانسطيطوت » عندهم اسم عام يشتمل على جميع اجتماع « الأكدمات » أى المجالس الخمس ، وهى : « أكدمية » اللغة الفرنساوية و « أكدمية » العلوم الأدبية ، ومعرفة الأخبار والآثار ، و « أكدمية » العلوم الطبيعية والهندسية ، و « أكدمية » الصنائع

الظريفة (١) ، و « أكدمية » الفلسـفة · وقولنـا « أكدمية » أو «أكدمة» أو «قدمة» هو لفظ مأخوذ من اسم مكان فى مدينة «أثينا» كان أفلاطون الحكيم يعلم فيه تلاميذه ، ومنه قيل لطائفة من الفلاسفة القدماء : « الأكدميون » وكان يقال لهذا المكان « أكدمية » لأن صاحبه كان شخصا يونانيا اسمه : « أكدمس » ، وقد جعل هذا المكان وقفا لأهل مدينة « أثينا » ، وصيروه بستانا يتماشون فيه ، ويتفرجون ، فكان يدرس فيه أفلاطون ، ومنه قيل لجماعة أفلاطون « أكدميون »ويقال لهم « أفلاطونيون » وهم مشهورون أيضا فى كتب العربية بالاشراقيين (بالقاف ، والفاء) ويقال لهم أيضـا الهيون ، ويطلق « أكدميون » الآن عند الفرنسـاوية فيفهم منه بمجرد اطلاقه أهل أكدمة الفرنسيس ، وهم كبار علماء الفرنساوية ، فاذا قيد فالمعنى ظاهر كما اذا قيل : « أكدمة مصر » ، فالمراد بها الجامع الأزهر ، لأن المراد به ديوان أكابر علماء مصر ·

فأول علماء « باريس » بل وعلمـاء فرنسـا ديوان العلوم المسمى : « أكدمة الفرنسيس » وأهلها أربعون عالما ، كل واحد من الأربعين يسمي : عضوا ، يعنى أن هذا الديوان بأربابه كالبدن ، وكل واحد كالعضو منه ، وفى الغالب إن أرباب هذا الديوان لهم فضل عظيم على من عداهم من الفرنسـاوية ، ووظيفتهم تأليف القواميس الفرنساوية ، وأنهم يمتحنون مؤلفات العلوم الأدبية وكتب التاريخ · وقد اتفق أن بعض علماء الفرنسيس قد بلغ درجة عالية فى العلوم ، وصلح لأن يكون من أرباب هذه « الأكدمة » بدل واحد من أربابها مات ، وكان هذا العالم كثير المجون ، فتوقفوا فى قبوله فى هذا الديوان ، فما كانت حيلته الا أنه كان دائما يعرض بهجو أهلها · فمن نوادر وقائعه : أنه مر ذات يوم ومعه بعض أصحابه على هذه « الأكدمة » فتحدث مع أصحابه ، فتذاكروا فى فضـل

---

(١) يريد بها الفنون الجميلة "Les Beaux Arts"

علماء « آكدمة » فقـــال : لا شـــك أن عقول أرباب هذا الديوان كعقل أربعة ، يشـــير بذلك الى بعض الأمثلة (١) الفرنســاوية ، من قولهم في مدح الانسان : ان له عقلا كعقل أربعة ومشيرا الى أن عقل كل عشرة منهم كعقل واحد ، فظاهر عبارته من باب المدح وباطنها غير ذلك ٠

ومن نوادره : أنه كتب قبل موته كعادة الفرنساوية على رخامة قبره المهيأ له بيت شعر باللسان الفرنساوى يقول فيه ما معناه بالعربية :

ها قبر من لم يك شيئا أيمــه   كــلا ولا من علمـــا آكدمــه

ومعناه : هذا قبر من لم يصــل الى درجة أياما كانت حتى لو بلغت هذه الدرجة في الحقارة درجة هؤلاء العلماء ٠

وهناك آكدمة تسمى « آكدمة تقييد الفنون الأدبية » وأهل ديوان هذه الجمعية ثلاثون نفسا ، ووظيفتها الاشتغال بالألسن النافعة ، وبآثار القدماء خصوصا بالمبانى الغريبة ، وبالعلوم الأدبية وبعوائد الأمم وأخلاقهـــا ، وغالب شغلهـــا تكميل آداب العلـــوم الفرنساوية بما خلت عنه ، مما هو في كتب علوم اللغات الغريبة ، كاللاطينية ، والعربية ، والفارســـية ، والهنـــدية ، والصينية ، واليونانية ، والعبرانية ، والقبطية وغيرها ٠

ومن الآكدمات الآكدمة المسماة « أكدمة العلوم السلطانية » وأهلها منقسمون أحد عشر قسما ، لكل قسم منهم فرع مخصوص فتكون فروعهم اثنى عشر فرعا : فأهل القسم الأول : يشـــتغلون بالرياضيات ، كالهندسة والحساب : وأهل القسم الثانى بعلوم الحيل كعلم جر الأثقـــال ونحوه ، والثالث : بالعلوم الفلكية ، والرابع : بالعلوم الجغرافية ، والعلوم التجريبية ، والخامس :

---

(١) يريد الأمثال ٠

بعلم الطبيعة العامة ، والسادس : بالطبيعة ، والسابع : بعلم المعادن والأحجار ، والثامن : بعلم الحشائش ، والتاسع : بتدبير مصاريف الأرض ، والعاشر : بتطبيب الدواب ، والحادى عشر : بالتشريح ، والثانى عشر : بفن الطب والجراحة •

ومنها : الأكدمة السلطانية المسماة : « أكدمة مستظرفات الفنون » (١) ، وهى خمسة فروع : الأول : فن الرسم ، الثانى : فن النحاتة ، الثالث : فن العمارات ، الرابع : فن النقاشة ، والخامس : فن تركيب حروف الموسيقى •

ومنها : مكتب الفنون الظريفة ، وهو مكتب موقوف على تعليم علم الرسم وتوابعه ، وفيه يتعلم الرسم ، والنقاشة والعمارة •

ومن مجالس العلوم جمعية تسمى : « أثينة الفنون » وهى تعين على تقدم الفنون والصنائع ، وهى كالحكم الذى ينفذ الأشياء ، ويقضى فيها برأيه •

ومنها : « أثينة باريس » السلطانية ، وهى محل علوم وفنون ، ولا يكون فيها الانسان للتعلم الا اذا دفع شيئا يسيرا كل سنة ، والمدرسون فيها أرباب فضل •

ومنها : جمعية تسمى « الجمعية الفيلوماتية » (٢) ومعناه : محبو العلوم ـ والغرض من هذه الجمعية الاعانة على التقدم فى علوم التولدات ، وهى مرتبة الحيوانات والنباتات والمعادن •

ومنها : جمعية تشتغل بعلوم الانشاء والبلاغات والغرض من هذه الجمعية تدوين العلوم الأدبية ، وحفظ غريبها ، حتى لا تفسد

---

(١) Les Beaux Arts.

(٢) La Société philomathique.

لغة الفرنسيس ، واذا اخترع الانسان معنى غريبا ، أو أجاب عن سؤال غريب أو قال شعرا مقبولا ، فانهم يعطونه جائزة ذلك •

ومنها : جمعية تسمى « حسن الدروس » ووظيفتها تعليم الآداب القاثوليقية ، والدين القاثوليقى •

ومنها : جمعية تسمى « آكدمة ابناء أبلون » يعنى الأدباء ، وهى مجلس أرباب الفنون الأدبية •

ومنها : جمعية تسمى « الجمعية الأسياتية » (١) يعنى فى لغات أهل آسيا ، أو اللغات المشرقية ، ووظيفتها تحصيل كتبها الغريبة ، وترجمتها الى الفرنساوية ، أو طبعها لتشتهر •

ومنها : جمعية تسمى « الجمعية الجغرافيسة » وهى معـدة لتحسين وتكميل علم الجغرافيا ، فهى تقوى الناس على السفر الى البلاد المجهولة الأحوال ، فاذا سافر فيها انسان ورجع يطلبون منه سائر ما علقه عليها ، فتأخذ ما علقه وتقيده وتدخله فى كتب الجغرافيا ولذلك كان ذلك العلم عند الفرنساوية دائما يأخذ فى الكمال • وبالجملة : فهذه الجمعية هى التى تخدم سائر ما يتعلق بالجغرافيا ، كطبع (الخرطات) ونحوها •

ومنها : الجمعية « الغرماتيقية » يعنى المشتغلة بنحو اللغة الفرنساوية فان علم النحو يسمى فى اللسان الفرنساوى « الأغرمير » وباللاطينية والايطالية « أغرماتيقا » ووظيفة هذه الجمعية : الاشتغال بتصحيح اللغة وتجديد اصطلاحات ، أو ابقاء الاصطلاحات القديمة ، لأن اللسان الفرنساوى لسان غير قار القواعد كتابة وقراءة •

ومنها : جمعية تسمى « جمعية المولعين بالكتب الخزائنية » ووظيفة أهل هذه الجمعية الحث على طباعة الكتب النافعة النادرة •

---

(١) La Société Asiatique.

ومنها : جمعية للخطاطين ، وأهلها يشتغلون باجادة الخط •

ومنها جمعية تسمى : جمعية المغناطيسية الحيوانية ، وهى جماعة تقول : بوجود سيال مغناطيسى فى الحيوان •

ومنهـــا : جمعية « حفظة آثار القدماء » ، وهى جمعية معـدة لحفظ ســـائر ما يوجـد من الآثار الباهرة عند القدماء كبعض مبانيهم ، وموميائهم ، وملبسهم ونحـــو ذلك ، والبحث عن ذلك : ليتوصـــل به الى دراســـة عوائدهم ففى ذلك يوجـد كثير من الأمور النفيسة المأخوذة من بلاد مصر ، كالحجر المصور عليه فلك البروج المأخوذ من « دندرة » فان الفرنساوية يتوصلون به الى معرفة الفلك على مذهب قدماء أهل مصر ، فان مثل ذلك يأخذونه بغير شىء الا أنهم يعرفون مقامه ، فيحفظونه ، ويستخرجون منه نتائج شتى ، ومنافع عامة •

ومنها : مكتبة تسمى « مكتبة الأطوال » ، وأهلها اثنا عشر : ثلاثة مهندسون ، وأربعة فلكيون ، وأربعة بحرية ، وواحد جغراقى ، فيشتغلون بعلم الهيئة ، وتأليف (الرزنامات) السنوية ، وتحرير الزيجات (١) ، وذكر أطوال البلاد •

ومنها : الجمعية السلطانية فى علوم الفلاحة ، وتحرير توفير المصاريف البرانية والجوانية وأهل هذه علماء ، أغنياؤهم يعطون الجائزة لمن يخترع شيئا جديدا نافعا •

ومنها جمعية لتحسين الأصواف ، ووظيفة أهلهـــا مباشرة ما يتعلق بالغنم •

ومنها : جمعية تعين على حث الفرنســاوية على البراعة فى الفنون والصنائع ، وهى تعين الصنائع بسائر أنواعها على التقدم ،

---

(١) التقاويم •

فاذا اقترح انسان شيئا نافعا أخذ من أهل هذه الجمعية تحفة عظيمة وشهرة •

وفي باريس مدارس سلطانيـــة تســمى : « الكوليج » (١) (بضم الكاف ، وفتح اللام ، وسكون الياء) وهى مدارس يتعلم فيها الانسان العلوم المهمة التي تكون وسائل فى الأمور المقصودة منها ، وهى خمسة (كوليجات) يدرس فيهـا صناعة الانشـاء والتأليف ، والألسن القديمة الغريبة • والعلوم الرياضيات ، وعلم التاريخ ، والجغرافيا ، والفلسفة ، واصـول الطبيعيات ، يعنى كتبها الصغيرة ، وعلم الرسم ، وعلم الخط وفيها مراتب للطلبة ، فان الانسان يسلك فيها في العادة مرتبة كل سنة ، ففى كل سنة من ست سنين يخرج الانسان من مرتبة الى أعلى ، فهى بالترقى ، لا بقوة الفهم ولا بغيره ، فلا يمكن للانسان أن يتعدى أبدا [مرتبته]•

وهناك (كوليجان) آخران غير سلطانيين ، وفيهما يدرس ما يوجد فى (الكوليجات) الخمسة السابقة ، وفيها (كوليج) آخر يسمى (كوليج الفرنساوية السلطانى) وهو أعظم جميعها فيتعلم فيه الرياضيات ، والطبيعة المخلوطة بالحساب ، والطبيعة العملية ، والهيئـة ، والطب ، والتشريح العمليان ، وفيـه تعلم اللغـات : كالعربيـة والفارسـية ، والتركيـة ، والعبرانية ، والسريانية ، والهندسة ، ولغة أهل الصين ، وعلومهم ، ولغة التتار، والحكمة اليونانية التى هى فلسفة اليونان ، وعلم الفصاحة والبلاغة فى اللسان اللاطينى ، وعلوم بلاغة اللغة الفرنسـاوية • وهذا (الكوليج) يشتمل على أكابر المدرسين ، وفيه ستة آلاف طالب ، ومن أشهر المدارس : مدرسة « بوليتقنيقا » (٢) (بضم الباء وكسر اللام ، وسكون الياء والقاف ، وكسر التاء والنون ، وسكون الباء)

---

(١) Collège.

(٢) L'Ecole Polytechnique.

يعني مدرسة كليات العلوم ، وفيه يدرس الرياضيات ، والطبيعيات ، لتربية مهندسين في علم الجغرافيا ، وفي العسكرية ، فمهندسو الجغرافيا يهندسون القناطر والأرصفة والطرق والجسور والخلجان ، وكل آلات الحيل ورفع الأثقال • وأما مهندسو العلوم العسكرية ، فهم يهندسون القلاع والحصون والبروج ، والتوقي من ضرر الأعداء ، واتخاذ العراضي ، وهندسة تسبيب البارود • وأرباب هذه المدرسة محققون ، لهم باع في سائر العلوم ، ويكفي في فضل الانسان أن يكون من تلاميذها •

ومنها : مكتب يسمى « مكتب الفروع الفقهية » فيدرسون فيه أحكام المعاملات والجنايات ونحوها •

ومنها : مكتب موقوف على تعليم علم الرسم ، فيدرس فيه الذكور والاناث علم التصوير •

ومنها : مكتب الغناء السلطاني فيتعلم فيه أيضـــا الذكور والاناث علم الألحان الصوتية والغناء الكنائسي •

ومنها : مكتب موقوف أيضا على الرسم والرياضيات ، لتكون وسائل للفنون ، فيتعلم فيه الحساب ، والهندسة ، والقياس ، ونحاتة الحجر والخشب ، وعلم المساحة ، وتصــوير البهيمة ، والآدمي ، والأزهار وأنواع الزينة •

ومنها : مكتب القناطر والجسور : وفيه يتعلم هندسة الطرق والخلجان والأرصفة •

ومنها : مكتب سلطاني لتعلم علم المعادن ، وفيه يتعلم وسائط كشف المعادن واستخراجها •

ومنها : مدرسة الفنون والحرف يتعلم فيهما علمــا الكيميا والهندسة الداخلان في الحرف والفنون ، وفيها يوجد سائر آلات الصنائع الموجودة الى هذا العصر •

ومنها : مكتب يسمى : مكتب اللغات المشرقية المستعملة ، وفيه يتعلم الفارسى والملاباري والعربية الأصلية والدارجة ولغة الترك والأرمن والروم ٠

ومنها : مكتب يسمى « مكتب الأرليغولوغى »(١) (بفتح الهمزة وسكون الراء وكسر اللام ، وسكون الياء ، وضم الغين واللام وكسر الغين الأخيرة) يعنى تفسير الكلمات المكتوبة من قديم الزمان فى اللغات القديمة ، فيفسرون فيه النقود والمعاملات المكتوبة فى الأزمنة السالفة والأحجار المنقوشة ، وترجمة الهياكل القديمة المكتوبة ٠

ومنها : مكتب سلطانى يتعلم فيه تواريخ الدول وسياساتها ، ونحو ذلك ٠

ومنها : مكتب سلطانى للموسيقى والانشاء ، والخطابة ، وفيه يتعلم أهل اللعب والغناء والآلاتية ، من الذكور والاناث ، وأهل التعلم به أربعمائة نفس ٠

ومنها : مدرسة بستان السلطان ، التى هى بستان النباتات ، وبها يقرأ ثلاثة عشر درسا فى جملة فروع ٠ كعلم الحشائش ، والطبيعيات ، والكيميا ، والمعادن ، والتشريح ، والمقابلة بين أجزاء بدن الآدمى والبهيمة ٠

ومنها : مكتب يسمى « مكتب البستنجية » (٢) وفيه يتعلم علم زراعة الشجر ، وحفظه من البرد وتطبيع (٣) النباتات الغريبة المنقولة على اقليم المحل الذى نقلت اليه ٠

---

(١) L'Ecole de L'archéologie.

(٢) البستنجية : البستانين ـ يريد علم فلاحة البساتين ٠

(٣) التطبيع : جعلها تنطبع بحالة الاقليم الجديد ٠

ومنها : مكتب تقليم الأشجار غير المثمرة لاخراج ثمرها ٠

ومنها : مكتب تعليم النباتات والمعادن لمن يريد السفر فى بلاد ليميز نباتها ومعدنها ٠

ومنها : مكتب يسمى : « طب البهائم » (١) ، وفيه يتعلم تطبيب البهائم ، وفيه مارستانات للحيوانات المريضة ، وفيه مدرسة كيميا ، ومدرسة لعلم الطبيعة ، وفيه العقاقير ، وبستان حشائش ، ومكتب للفلاحة العملية ، وجملة أجناس من البهائم ، معدة لتجربة اختلاف أصناف البهائم وأصولها ، فيطلقون فيه صنفا مثلا من الخيل على صنف آخر ، كحصان عربي على حجرة (٢) أندلسية ليتولد منها صنف آخر ٠

ومنها : مكتب الصم البكم ، وهو موقوف على مائة نفس ، ويدخلون فيه من احدى عشرة الى ست عشرة ، فيتعلم فيه القراءة والكتابة ، والحساب واللسان ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وصنعة من الصنائع ٠ وفى هذا المكتب (ورشة) يتعلم فيها علم الطباخة ، والنقاشة ، والنجارة والخراطة والخياطة ، (والصرماتية) ونحوها ٠

ومنها : مكتب العميان السلطانى ، وهو موقوف على جملة محصورة من العميان ، فيتعلمون القراءة على شيء مكتوب لهم كتابة مخصوصة فيمسونها باليد ، ويتعلمون أيضا علم الجغرافيا ، على خرطات مخصوصة أيضا ، ويتعلمون التاريخ واللغات ، والرياضيات ، والموسيقى بالصوت وبالآلة ، وغير ذلك من الحرف كشغل الجرابات ونحوه ٠

وغير ما ذكرنا يوجد أيضا عدة مدارس ٠

ويوجد فى « باريس » أيضا مكاتب تسمى : « البنسيونات »

---

(١) يريد الطب البيطرى ٠

(٢) الحجرة بسر الحاء : الأنثى من الخيل ٠

جمع « بنسيون » (بفتح الباء وسكون النون ، وكسر السين ، وضم المثناة التحتية ، وسكون الواو) وهى مكاتب يتعلم فيها الصغار الكتابة والقراءة وعلوم الآلات كالحساب ، والهندسة ، وغيرها ، كالتاريخ ، والجغرافيا ، وهى نحو مائة وخمسين (بنسيونا) وفيها أكل الانسان ، وشربه ، ونومه ، وغسل ثيابه ، ونحو ذلك ، فيدفع أهالى الأولاد قدرا معلوما فى السنة ٠

وغير البنسيونات المذكورة يوجد بيوت صاحبها عالما ، فيأخذ عنده عدة أولاد ، ليأكلوا معه ، ويشربوا معه ، ويعلمهم بنفسه ، أو يحضر لهم معلمين عنده ٠

وغير هذا كله فكثير من الناس يحضر لأولاده المعلم فى البيت كل يوم ليعلمهم عنده ٠

ومن الأشياء التى يستفيد منها الانسان كثير الفوائد الشاردة التذاكر اليومية المسماة « الجرنالات » (١) ، جمع « جرنال » وهو يجمع اللغة الفرنساوية على « جرنو » وهى ورقات تطبع كل يوم ، وتذكر كل ما وصل اليهم علمه فى ذلك اليوم ، وتنشر فى المدينة وتباع لسائر الناس ، وسائر آكابر « باريس » يرتبونها كل يوم ، وكذلك سائر القهاوى ٠ وهذه « الجرنالات » مأذون فيها لسائر أهل فرنسا أن تقول ما يخطر لها ، وأن تستحسن وتستقبح ما تراه حسنا أو قبيحا ، وأن تقول رأيها فى تدبير الدولة ، فلها حرية تامة ، ما لم تضر بذلك ، فانه يحكم عليها وتطلب بين يدى القاضى ٠

« والجرنو » عصب ، فكل جماعة لها فى رأيها مذهب كل يوم تقويه وتحاميه ، وتؤيده ٠ ولا يوجد فى الدنيا أكذب من « الجرنالات » أبدا خصوصا عند الفرنسيس الذين لا يتحاشون الكذب الا من حيث كونه عيبا ٠

---

(١) الصحف Les journaux.

وبالجملة فكتاب « الجرنو » أسوأ حالا من الشعراء عند تحاملهم أو محبتهم ٠

« والجرنالات » مختلفة الأنواع والأصناف ٠ فمنها ما هو معد لذكر أخبار داخل مملكة الفرنسيس وخارجها ٠ ومنها ما هو مخصوص بأمور المملكة فقط ، وما هو للمعاملات وما هو للطب ، ولكل علم على حدته كعلم الطب الى آخره ٠

والجرنال الواحد ينطبع منه غالبا للبيع خمسة وعشرون ألف نسخة ، وكل جرنال تكثر نسخه على حسب رغبة الناس ٠ وأرباب « الجرنو » يعرفون الأخبار الغريبة قبل غيرهم ، لأن لهم مراسلات مع سائر البلاد ، وهم فى الواقع كخطباء الأمة يتعرضون للمدح والذم ، والاستحسان والاستقباح ، والتحسين والتقبيح ، والاغراء والتحذير ، الى غير ذلك ٠ وقبلهم فى ذلك المؤلفون ، وربما اتخذ المؤلفون خطابات أرباب « الكازيطات » (١) ، مادة لهم وأعلى درجة منهم أرباب الخطابات بالجمعيات العمومية الذين هم من أعضاء المجالس ، وهم أعلى طبقة فى الاعتبار من الشعراء ، فاذا نظرت وجدت هذا على نسق العرب فى قديم الزمان ، فقد قال أبو عمرو بن العلاء ما نصه : كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم الى الشعر ، الذى يقيد عليهم مآثرهم (٢) ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ، ومن غزاهم ، ويهيب (٣) من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم ، فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبه ورحلوا الى السوقة،وتشرعوا(٤)الى أعراض الناس صار

---

(١) الكازيطات Gazettes هى الصحف ٠
(٢) فى الأصل : بائرهم ــ تحريف ٠
(٣) هب الى فلان : جعله مهيبا عنده ٠
(٤) يريد : اتخذوا الى أعراض الناس طريقا ٠

الخطيب عندهم فوق الشاعر • ولذلك قال الأول : الشعر أدنى مروءة السرى (١) وأسرى (٢) مروءة الدنى ، ولقد وضع (٣) قول الشعر من قدر النابغة الذبيانى ، ولو كان فى الدهر الأول ما زاده الا رفعة •

ومن جملة علوم « باريس » الدفاتر السنوية ، والتقويمات الجديدة ، والزيجات (٤) المصححة ، ونحو ذلك • فكل سنة يظهر فيها كثير من (الروزنامات) المشتملة على التواقيع وعلى غرائب العلوم والفنون ، وعلى كثير من أمور الدولة ، وعلى تسمية أكابر الدنيا ، وتسمية أعيان فرنسا ، وتعيين بيوتهم ودرجاتهم ووظائفهم ، فاذا احتاج الانسان الى اسم واحد ، والى بيته راجع فى ذلك الكتاب •

وفى « باريس » (أوض) القراءة أو خلوات القراءة ، فيذهب الانسان فيها ، ويدفع قدرا معلوما ، ويقرأ سائر « الجرنالات » وغيرها من الكتب ، ويستأجر منها ما يحتاجه من الكتب ويأخذه عنده ويرجعه •

ومما يبهر العقول فى باريس دكاكين الكتبية وخاناتهم ، وتجارات الكتب، فانها من التجارات الرائجة مع كثرتها وكثرة المطابع، وكثرة التأليف التى تنطبع كل سنة فانها يعسر حصرها ، وأغلبها المقصود منه الكسب لا النفع، ولا تمر سنة بمدينة «باريس» الا ويخرج من المطبعة كتب معدومة النظير ، واعتناؤهم بالمعارف هو أحسن ما ينبغى أن يمدحوا به ، قال الشاعر :

---

(١) السرى : صاحب الشرف والمروءة •

(٢) أسرى : اشرف •

(٣) وضع من فلان : حط من قدره •

(٤) الزيجات : التقاويم •

فاذا شئت أن تحظى من الكتب كلها بأطيب مروى وأحسن مسموع
فطالع مجاميـع الدفاتر ، انهـا تفرق من هم الفتى كل مجموع

وقال آخر :

اجعل جليسك دفترا فى نشره ليريك من حكم الزمان نشـورا
ومفيد(١) آداب، ومؤنس وحشة واذا انفردت فصاحبا وسميرا

وبالجملة فلا يمكن وصف مدينة « باريس » مع تفصيل علومها وفنونها ، الا أنه يمكن التعبير عن ذلك اجمالا كما ذكرنا .

---

(١) الأصل : « معيد » وهو تحريف .

المقـالة الرابعـة

فيما كنا عليه من الاجتهـــاد والاشـتغال بالفنون المطلوبة لتحصيل غرض الوالى : وفى تدبير اشغال الزمن فى القراءة والكتابة وغيرهما ، وفى المصاريف الواسعة الخارجة من طرف الوالى ، وفى عدة مراســلات بينى وبين بعض خواص الافرنج تتعلق بالتعلم • وفى ذكر ما قرأته من الفنون والكتب بمدينة « باريس » •

ومن هذه المقالة تفهم أن تعلم الفنون ليس سهلا ، وأنه لابد لطالب المعــارف من اقتحام الأخطار ، لبلوغ الأوطـار ، فى تلك الأقطار •

قال الشاعر :

دعينى أنـــل ما لا ينـــال من العـــلا
فصعب العلا في الصعب ، والسهل في السهل

تريـدين ادراك المعـــالى رخيصـــة
ولابد دون الشهـــد من ابر النحـل

وقال آخر وهو من الكلام الجامع :

من كان يعلم أن الشهد راحته   فلا يخاف للدغ النحل من ألم

وقال آخر أيضا :

ان الفضـــائل بالأخطار مولعـــة   فابغ الفضائل وابذل جهدك الثمنا
وان أراك الهوى منه الهوان فقل   حكم المنية فى حب الحبيب منى

الفصل الأول

(فيما حصـل لنا فى أول الأمر من الترتيب فى القراءة والكتابة وغيرهما)

من عادة أهـل « باريس » أنهـم فى التعليم يبتدئون بتعليم الانسان القراءة فى كتب عظيمة الحروف لترسم صورها فى ذهنه ، وفى هذه الكتب توجد الحروف الهجائية بتركيبها ، ثم بعدها عدة ألفاظ لغوية من الأسماء والأفعال • فهذه الطريقة يتعلم الانسان منها الكتابة ، ويحفظ هذه الكلمـات ، وينطق بها كما ينبغى ، حتى تخرج لغته من صغره صادقة الجودة ، ثم بعـدها تلقى فى هذه الكتب عدة جمل سهلة التعقل ، تناسب الصغار ، فمن هذه الجمل ما وجدناه فى الكتاب الذى قرأناه : هذه فرس لها أربع ارجـل ، والطيور ليس لها الا رجلان ، لكن لها أجنحة تطير بها ، وأما السمك فانه يسبح فى الماء ، ونحو ذلك مما هو معلوم للمخاطب ، فهو مثل قول النحاة : السماء فوقنا ، والأرض تحتنا ، الممثل به لما لم يفد فائدة جديدة ، على اختلاف تفسير الوضع (١) فى قولهم : الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع ، ثم بعد ذلك يوجد فى هذا الكتاب أوصاف الحيوانات المعروفة ، خصوصا التى تتعلق الصغار باللعب بها : من العصافير ، والطيور ، والسنانير ، ونحو ذلك ، ثم بعد ذلك نبذة صغيرة فى كيفية سلوك الصغار : وطاعتهـم للوالدين ونحو

(١) يقول علماء الوضع : ان الكلمات انما افادت معانيها بوضعها لهذه المعانى •

ذلك ، ثم نبذة فى علم الحساب ، فبعد فراغ هذا الكتاب يبدءون فى قراءة كتاب أهم منه ·

وفى كتاب النحو الفرنساوى وغيره ، وتقسيم الزمن على دروس الانسان ، فان الانسان يتعلم فى النهار عدة أمور مختلفة ، فيقرأ فى الصباح مثلا التاريخ ، ثم بعده درس تصوير مع معلم الرسم ، ثم بعده درس النحو الفرنساوى،ثم بعده درس تقويم البلدان ، ودرسا مع معلم الخط لتعليم قواعد الكتابة : الى آخره · وقد أسلفنا ذلك ·

ولما كانت آمال الوالى متعلقة بتعلمنا عاجلا ، ورجوعنا الى أوطاننا ابتدأنا فى « مرسيليا » قبل وصولنا الى « باريس » وتعلمنا فى نحو ثلاثين يوما التهجى ، ثم لما ذهبنا الى « باريس » مكثنا جميعا فى بيت واحد ، وابتدأنا فى القراءة ، فكانت أشغالنا مرتبة على هذا الترتيب ، وهو : أننا كنا نقرأ فى الصباح كتاب تاريخ ساعتين : ثم بعد الغذاء نتعلم درس كتابة ومخاطبات ومحاورات باللغةالفرنساوية: ثم بعد الظهر درس رسم ، ثم درس نحو فرنساوى ، وفى كل جمعة ثلاثة دروس من علمى الحساب والهندسة · وفى مبدأ الأمر كنا نأخذ فى درسين : يعنى فى معرفة الكتابة الفرنساوية ، ثم بعد ذلك كنا نأخذ كل يوم درسا ، ثم انتهى الأمر الى أننا تعلمنا الخط ، فانقطع عنا معلم الخط ، وأما الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا فلم نزل نشتغل بها حتى سهل الله علينا بالرجوع ، وقد مكثنا جميعا فى بيت واحد دون سنة نقرأ معا فى اللغة الفرنساوية ، وفى هذه الفنون المتقدمة ، ولكن لم يحصل لنا عظيم مزية الا مجرد تعلم النحو الفرنساوى ، ثم بعد ذلك تفرقنا فى مكاتب متعددة ، كل اثنين ، أو ثلاثة : أو واحد منا فى مكتب مع أولاد الفرنساوية ، أو فى بيت مخصوص عند معلم مخصوص ، بقدر معلوم من الدراهم ، فى نظير الأكل والشرب والسكنى · والتعليم وتعهد أمورنا : من غسل ، ونحوه ، فكان يأخذ صاحب المكتب

أو البيت نحو عشرة أكياس كل سنة فى نظير ذلك ، ولا يلزمنا شيء فى المأكل والمشرب •

ولما كانت طباع هذه البلاد شدة البرودة كان لكل واحد منا فى كل سنة بثلثمائة قرش خشب للتدفى بها ، وغير هذه المصاريف العظيمة كان يشترى لنا من طرف (الميرى) أيضا القمصان والسراويل والنعال وسائر ما يلزم من الآلات والأدوات ، مثل الكتب والورق والحبر وأقلام التصوير وغيرها • ومما ينبغى ذكره أيضا ما كان يعطى للحكماء (والأجزاجية) فى مداواة من كان يمرض منا : فان الحكماء « بباريس » مع كثرتهم غاية الكثرة ، يأخذون فى زيارتهم للمريض الموسر قدرا له وقع ، على اختلاف مراتبهم فى الشهرة وعدمها ، ويتعدد القدر بتعدد الزيارة (١) ، وهذا ان لم يكن للحكيم سنوية معلومة ، وقد أسلفنا ذلك فى باب اعتناء الفرنساوية بالطب، وتعهدهم للصحة ، فأقل الحكماء يأخذ فى كل زيارة يمكث فيها نحو نصف ساعة ثلاثة فرنكات ، والحكيم المتوسط يأخذ فى كل زيارة خمسة فرنكات ، والحكيم الجليل القدر يأخذ فى كل زيارة أبلغ من خمسين فرنكا ، وكلما تعددت الزيارة فى اليوم الواحد تعدد القدر • وأما بالنسبة للمعدم فقد لا يأخذون منه شيئا • ونحن نعد هناك من الموسرين ، بل من الأغنياء لتجملنا بالملبس الغريب عندهم ، ولنسبتنا للوالى

ولكثرة هذه المصاريف فى تعليمنا وغيره من سائر ما ذكرنا ، كان ناظر التعليم أو الضابط علينا يذكرنا به فى أغلب الأوقات لنجتهد ، وسنرى بعض ذلك فى مراسلات كتبها لى بعد الامتحان العام •

---

(١) فى الأصل (الزيادة) ، وهو تحريف •

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٥٠٧ / ١٩٩٣

1SBN — 977 — 01 — 3370 — I

المواجهة

بلغت مؤامرات التطرف والارهاب فى مصر معدلات غير مسبوقة خلال السنة الأخيرة . ولم تعد هذه الظاهرة مجرد تهديد للدولة والنظام الحاكم ، بل اصبحت تهدد المجتمع المصرى كله ، سواء فى بنيته الداخلية أو فى اقتصاده أو أمنه الاجتماعى والسياسي ومكتسباته الثقافية والفكرية ، وكذلك انجازاته الاقتصادية والمادية . ولا تقل الحرب التى يشنها المتطرفون والارهابيون ضراوة عن اى حرب خاضتها مصر مع أعدائها الخارجيين فى هذا القرن . بل ربما كانت هذه الحرب أشد ضراوة ، لأن أحد أطرافها هم أبناء لنا ، أعماهم التطرف : فاختاروا العنف سبيلا لفرض إرادتهم وزعزعة استقرار الوطن : واستهدف عنفهم أبناء لنا فى أجهزة الأمن ، أو أخوة لنا من المدنيين المسالمين العزل ، مسلمين وأقباطا.

ان ما تمر به مصر الآن هو مأساة إنسانية وثقافية وحضارية ، وكارثة إقتصادية وسياسية ولذلك أصبح من الضرورى أن ينتفض المثقفون المصريون ، ومؤسسات مجتمعهم المدنى ، للوقوف فى وجه التطرف والارهاب لمحاصرتهما واحتوائهما ، تمهيدا لاقتلاعهما تماما .

من أجل هذا تصدر الهيئة المصرية العامة للكتاب بيت المثـ[illegible] المصريين هذه السلسلة للوقوف أمام هذه الظاهرة بالفكر المستنير والـ[illegible] الحق الشريفة .

الغلاف للفنان : محمود الهندى